

# لتحيا اللغة العربية

## يعيش سيبويه !

رد على هجوم وكيل وزارة الثقافة في مصر  
على لغة القرآن وقواعدها

# ض

د. إبراهيم عوض

مكتبة الثقافة  
الدوحة - قطر



## لتحيا اللغة العربية: يعيش سيبريه

(رد على هجوم وكيل وزارة الثقافة في مصر على لغة القرآن وقواعدها)



# لتحيا اللغة العربية: يعيش سيبرويه

(رد على هجوم وكيل وزارة الثقافة في مصر على لغة القرآن وقواعدها)

د. إبراهيم عوض

١٤٢٦هـ — ٢٠٠٥م

مكتبة الثقافة

الدوحة — قطر





## تمهيد

منذ غدة أبام استضافتني قناة التنوير المصرية وأنا ود. عبد الله التطاوى ود. عبد المنعم تليمة، في برنامج "للود قضية" لمناقشة أ. شريف الشوباشي، وكيل وزارة الثقافة المصرية، في آرائه حول اللغة الفصحى والعمل على تطويرها كي توائم العصر الحديث من وجهة نظره، تلك الآراء التي بثها في كتابه: "لتحيا اللغة العربية: يسقط سيويو". وكان رأيي أنا ود. التطاوى مختلفا إلى حد كبير مع رأي المؤلف ود. تليمة، الذي وقف إلى جانب صاحب الكتاب يعضد كل ما يقول ويدافع عنه بحماسة. ثم طلب مني عقب ذلك بعض الأصدقاء الصحفيين أن أكتب لهم موجز رأيي في دعوة الأستاذ الشوباشي ففعلت. ثم بدا لي أن أسجل أفكارى في ذلك الموضوع في بحثٍ مفصّل، فكان هذا الكتاب الذي بسطت من خلاله وجهة نظري في القضية المذكورة على نحو منهجي مرتب مما يصعب توفره في المناظرات التلفازية أو الحوارات الصحفية. وكل الذي أرجوه ألا تكون أخطائي فيما كتبت هنا فادحة ولا فاضحة، وأن يتقبل الله عملي ويجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن يوفقنا جميعا لما فيه عزة أمتنا

وعزة لغتها وثقافتها، وأن يوثقها بين الأمم المجيدة مكانا عليًا بدل هذا  
الهوان الذى أطمعَ فيها من يساوى ومن لا يساوى. وهو، سبحانه،  
بالإجابة جدير.

(القاهرة فى الحادى والعشرين من يوليه لعام ٢٠٠٤م)



## الرد على الأستاذ الشوباشي

أصدر الأستاذ شريف الشوباشي، وكيل وزارة الثقافة المصرية للشؤون الخارجية، منذ أشهر قلائل كتاباً عنوانه "لتحيا اللغة العربية: يسقط سيبويه"، تناول فيه اللغة العربية الفصحى والكلام الذي يثور في العصر الحديث بين الحين والحين عن صعوبة قواعدها عارضاً الوسائل التي يراها كفيلة بالقضاء على هذه الشكوى مع الحفاظ على الفصحى في ذات الوقت حسبما جاء في كلامه. وهو ينطلق مما يقول إنه لاحظته في التقييم السنوي العالمي المسمى بالـ "المناك" لعام ٢٠٠٤ م من تراجع اللغة العربية عن المكانة التي كانت تشغلها قبلاً، بما يُفهم منه أنها قد أُسْقِطَتْ من هذه المطبوعة التي تهتم بإيراد أحدث الإحصاءات والمعلومات الأساسية في كل المجالات في العالم. يقول كاتبنا إن الـ "المناك" لم تُعَدْ تنظر إلى لغتنا بوصفها لغةً قائمةً بذاتها، إذ اللغة إنما جُعِلَتْ لتكون أساساً للتفاهم اليومي بين الناس لا لتكون أداة للدراسة والتعليم. وما دامت اللغة العربية قد انحصرت استعمالها في الدرس والعلم ولم تعد تستخدم في أغراضنا اليومية، فمعنى ذلك أنها أضحت لغة ميتة، وبناءً على هذا فلا يصح

إدراجها بين اللغات التي لا يزال يستخدمها أصحابها. ثم يمضى قائلا إن الأمر قد هاله وبعثه على التفكير في هذه القضية، وبخاصة أن تلك المطبوعة هي أحد أهم المراجع بالنسبة لكبار الكتاب والمتخصصين في الغرب، ومن الخطأ إذن أن نأخذ ما جاء فيها باستخفاف. ومع ذلك فلا بد من التنبيه إلى أنه رغم هذا قد أشار، ولكن على نحو عارض وسريع، إلى أن الـ "المنك" هو من المطبوعات التي لا تخلو من الأغراض الخبيثة (ص ٧-٨). وهنا أحب أن تكون أولى وقفاتي، فمن المؤكد أن ما فعله الـ "المنك" بشأن لغتنا هو الزيف والتدليس والخبث بعينه ونفسه وقصته وقضيضه، وليس له معنى غير هذا، ولا يمكن أن يفهم إلا على هذا النحو. ولكن كيف ذلك؟ المعروف أن اللغة، أية لغة، لها مستويات عدة: المستوى الفصيح، ومستوى الأحاديث الثقافية للمتعلمين، ومستوى أحاديثهم العادية، ومستوى العامة، ومستوى الدهماء والغوغاء. بل إننا في هذا المستوى الأخير مثلا يمكن أن نميز بين ضروب مختلفة من العامة كما هو الحال في لغة بعض الطوائف الخاصة كطائفة اللصوص أو الشحاذين... وهلم جرا. وهذا لون واحد من ألوان التقسيمات اللغوية حسب المستوى الثقافي والاجتماعي للمتحدثين بها، وقد تُقسَّم هذه المستويات على نحو

مختلف بعض الشيء كما فعل د. السعيد محمد بدوى فى كتابه "مستويات العربية المعاصرة فى مصر" (دار المعارف/ ١٩٧٣م/ ٨٩ وما بعدها)، إذ قسمها إلى: فصيح التراث، وفصحى العصر الحاضر، وعامية المثقفين، وعامية المتنورين، وعامية الأميين. بل إن اللغة تختلف فى البلد الواحد من مكان إلى مكان، مثلما هو الوضع فى مصر حيث تمتاز لغة أهل الصعيد بوجه عام عن لغة الوجه البحرى، وكما تمتاز لغة أهل قريقتى عن لغة القرية المجاورة لها مع أنهما توشكان، بفضل التوسع العمرانى، أن تصبحا قرية واحدة. واللغة، فى الواقع، هى كل هذه المستويات، وذلك على عكس ما يريد محررو الـ "ألنأك" أن يوهونا به من أن اللهجات العامية التى يتحدث بها العرب ليست هى اللغة العربية، وعليه فلا بد من استبعاد هذه اللغة من قائمة اللغات التى لا تزال حية تُستعمل! إن هذا هو البكش بعينه! وإلا فليست هناك لغة واحدة فى العالم ينطبق عليها هذا الشرط الغريب الذى لم يشأ أصحاب الـ "ألنأك" أن يطبقوه إلا على لغة القرآن الكريم لغرض فى نفس يعقوب!

فمعروف أن المستوى الفصيح فى أية لغة يقتصر استعماله على مجال التأليف والإبداع والخطب والمحاضرات والندوات، أما فى الحياة اليومية

فهناك مستويات أخرى يلجأ إليها الناس لتصريف أمورهم كما أشرنا آنفاً. هكذا كانت اللغات البشرية، وهكذا هي الآن، وهكذا ستظل. ومن يقل غير هذا فهو إما جاهل أو بكّاش، والذين قاموا على إخراج الـ "المناك" لا يمكن أن يصلوا في الجهالة إلى هذا المدى المغرق في السُّقُول، وإلا كانت فضيحة لا تغتفرا فلم يبق إلا أن أن يكونوا بكّاشين. والغرض من وراء ذلك أن يغرسوا في نفوسنا أن لغتنا قد انتهت دورها ولم يعد أمامها إلا أن نواربها التراب وأن نتخذ العاميات عنها بديلاً. وهذا في الواقع هو ما يريده منا بعض المستشرقين والمبشرين ممن يعملون على أن يقيموا بيننا وبين القرآن المجيد حاجزاً لا يمكن تخطيه، ألا وهو حاجز اللغة، إذ متى ما اختفت اللغة الفصحى التي نزل بها كتاب الله فقد حيل بيننا وبين ذلك الكتاب، اللهم إلا أن يفكر في دراسته بعض المتخصصين، أو نترجمه إلى اللغة العامية كما سمعنا من ينادى بهذا في الأشهر الأخيرة في أرض الكنانة حامية القرآن واللسان الذي نزل به هذا القرآن، وعندئذ لن يكون النص المترجم هو القرآن الكريم بل كلاماً عامياً متخلفاً ليس بينه وبين أسلوب القرآن المعجز أية صلة، فضلاً عن أن الترجمة، بطبيعة الحال، لن تكون سوى فهم خاص لذلك النص بما لا بد أن يصاحب هذا الفهم

من قصور وأخطاء ونزوات وأهواء. ثم مع توالى الأيام يزداد النص المترجم ابتعاداً عن الأصل الإلهي الكريم... إلى أن نفى ذات يوم على نص ليس بينه وبين الأصل أية وشيجة.

لكن الأستاذ الشوباشي يؤكد أنه حريص أبلى الحرص على اللغة الفصحى لأنها، حسبما جاء في كلامه، هي الرباط الوحيد الآن بين شعوب الأمة العربية بعد تفرقهم سياسياً وتمزقهم اقتصادياً. كما يؤكد أيضاً أنه لا يجب أن ينقطع ما بيننا وبين التراث العظيم المكتوب بهذه الفصحى، ومن ثم فهو لا يفكر في استبدال العامية بها (ص ١٦ - ١٧، ١٣٨، ١٦٥ - ١٦٦)، بل كل ما يبغيه هو تطوير اللغة العربية بتقريب الفجوة التي تفصل فصحاها عن عاميتها حتى يستطيع الناس أن يتكلموا بها ويكتبوا دون أن يقعوا في الأخطاء التي يقعون فيها الآن، وحتى تسائر العصر الذي نعيش فيه فلا يأتي علينا يومٌ نجد أننا لا بد أن نتخلى عنها لعجزها عن الوفاء بمتطلباتنا (ص ١٤١)، وذلك من خلال تطوير قواعدها التي لم تتغير طوال عمرها البالغ خمسة عشر قرناً، مخالفة بذلك ما جرى للغات الأخرى من عدم توقف قواعدها عن التغيير كل هذه المدة كما حدث للغة الصينية التي كانت تتطور قواعدها كل خمسمائة عام، وكما

حصل في اللغة الإنجليزية أكثر من مرة رغم تاريخها القصير بالنسبة للغتنا، وكما أراد الفرنسيون كذلك أن يصنعوا في لغتهم، وإن لم يصلوا إلى المدى الذي بلغه أهل الإنجليزية، وبخاصة في أمريكا، من تبسيط وتطويع انتقلت به هذه اللغة من حال إلى حال لتصبح أسهل لغات العالم تعلمًا (ص ٤٥ — ٤٦، ٤٩، ٥٥).

هذا ما قاله الكاتب، ولكن ما طبيعة التطوير الذي يريد من خلاله التقريب بين الفصحى والعامية يا ترى؟ إنه يرى أن المفعول به يمثل عقبة كإداء في سبيل إتقان العربية، ومن ثم نراه ينادى بالألا يكون منونًا، بل يُكْتَفَى فيه بالسكون (ص ١٧٢). وهو يريد بهذا إلغاء الإعراب، لكن كلامه تُعَوِّزُه الدقة ووضوح التعبير كما هو بين جليّ. كذلك نراه ينادى أيضًا بالتخلص من التانيث في الأرقام وفي الجمع معًا، فنقول مثلاً: "تسع رجال، وتسع نساء" على السواء، كما نقول: "النساء كلهن أكلوا" بدلا من "النساء كلهن أكلن"... وهكذا، وهو ما ينسحب على الأسماء الموصولة التي تكتفى العامية فيها بكلمة "اللى" في كل الحالات (ص ١٧١ — ١٧٢، ١٧٥)، على حين تستعمل الفصحى مجموعة كاملة منها هي "الذى واللى واللذان واللتان والذين واللاتى". وبالمثل نجد ينادى

بالتخلص من صيغة المثنى فلا يكون لدينا بعدها إلا المفرد والجمع فقط  
 مثلما هو الأمر في اللهجة العامية واللغات الأوربية. وعلى نفس الوتيرة  
 يهاجم الحملة الفعلية زاعما أنها تؤدي إلى التباس المعنى بخلاف الاسمية التي  
 تعبر عن المراد بكل وضوح ودقة (ص ١٦٨). وفوق ذلك فهو يهاجم  
 العربية لكثرة ما فيها من مترادفات (ص ١٧٧ — ١٨٠)، كما يتهمها بأن  
 فيها نقصا معيبا في حروف العلة وأن غالبية حروفها ساكنة (ص ١٦٨ —  
 ١٧٠). والمتأمل في هذه الاقتراحات والاتهامات يلحظ من فوره أنها تكاد  
 تقلب الفصحى عامية بما يواعد بيننا وبين اللغة التي ظل آباؤنا وأجدادنا  
 يستعملونها في الكتابة والقراءة والتفكير العلمي والإبداع الأدبي لما ينوف  
 على خمسة عشر قرنا، ومن ثم يقيم بيننا وبين التراث العظيم الذي خلفوه  
 جدارا عاليا سوف يزداد مع الأيام والسنين ارتفاعا وسُمكا وضلادة،  
 فضلا عن أنه سوف يجعلنا نشعر مع القرآن الكريم بغربة مزعجة لا نجدها  
 الآن، وهو ما يتناقض مع ما أكدته في أكثر من موضع في الكتاب من أنه  
 لا يهدف أبدا إلى القضاء على الفصحى وإحلال العامية مكانها!  
 ولست أريد أن أدخل في مناقشة نيته من وراء ما كتبه في هذه  
 القضية، فقد يكون حسن القصد فيما يدعو إليه ومومنا بأن ما يقوله من



شأنه أن يخدم لغته القومية فعلا، وقد يكون أقدم على هذا الذى كتبه هنا وهو يدرك أنه سوف ينجلي عن نتائج غاية فى الوخامة، فعلم ذلك كله عند الله. ثم إنى أعترف بأن انتسابه إلى الأستاذ محمد مفيد الشوباشى، القصاص والشاعر والناقد والمترجم المعروف صاحب الأسلوب المحكم الجميل، والمدافع بمتهى الشراسة والحق عن أصالة الحضارة الإسلامية والعقلية العربية وجمال لغة الضاد أسلوبا وإبداعا أدبيا رغم أنه كان يساريا، والذى قرأت له عددا من المؤلفات والمترجمات واستمتعت بها غاية الاستمتاع منها "القصة العربية القديمة" و"رحلة الأدب العربى إلى أوربا" و"الأدب الثورى عبر التاريخ" و"آسيا وجداول الربيع" لترجنيف و"نافخ البوق" لتوماس هاردى، أقول: إن انتسابه لمحمد مفيد الشوباشى يغلّ يدي عن أن أتناول ما كتبه فى موضوعنا بنفس الشدة التى أرد بها على من يهاجمون العربية أو الإسلام. ولقد بلغ من اعتزاز الشوباشى الكبير بلغتنا العبقريّة أنه كان ينحى باللائمة على كاتبنا فى شبابه حين يراه يجرى على منوال اللغات الأوربية فى كثير من الأحيان بإيثاره الجملة الاسمية على الفعلية حسبما حدثنا الكاتب نفسه (ص ١٦٨)، وإن لم ألاحظ فى الكتاب الذى بين يديّ الآن والذى أرسله لى كاتبنا مشكورا ولا فى كتابه الآخر

"الداء العربي" الذى أرسله معه أن للحملة الاسمية الغلبة على غريمها الفعلية. كما أن الأديب الراحل كان يرفض أشد الرفض استعمال العامة فى الكتابة حتى ولا فى الحوار القصصى. والطريف أنه كان يستند، ضمن ما يستند إليه فى ذلك الرفض، على التحليلات الماركسية فى الفكر والأدب. ويستطيع القارئ أن يجد شيئا مما كتبه فى هذا المجال فى مقال له بمجلة "العالم العربي" القاهرية فى عدد مارس ١٩٥٨م. وهناك سبب آخر يمنعنى أن أكون شديدا فى نقد ما كتبه أ. شريف الشوباشى، فقد بدا لى، أثناء مناقشتى أنا ود. عبد الله التطاوى له ولآرائه الواردة فى كتابه المذكور فى الحلقة التى سجلتها معنا قناة "التنوير" المصرية من برنامج "لِلوُودِ قضية" منذ أيام، أنه رجل دمث الخلق متواضع، وليست فيه حاجة بعض الكتاب ممن يعملون على التنقص من تراثنا فى الدين أو الفكر أو الأدب. بل إنه فى الكتاب الذى نحن بصدد الحديث عنه هنا لم يحدث أن تعرض بكلمة سوء لآى من رموزنا التاريخية، وكذلك لم يقع أن ذكر الرسول إلا بمنتهى التبجيل والاحترام، كما كان دائم الصلاة عليه إلا فيما ندر. وكان أدبا جميلا منه أن نجد يقول عن هذا الصحابى أو ذاك: "سيدنا فلان". وفوق هذا كله فقد رأيناه يبتدى كلامه فى تلك الحلقة

بالقول بأن ما كتبه في كتابه ذاك إنما هو مجرد رأى قد يكون ضواها، وقد يكون خطأ. على أن هذا كله لم ينعنى في الحلقة التلفازية المذكورة، ولن ينعنى الآن، من أن أختلف معه غاية الاختلاف إذا رأيت أن كلامه غير منطقي أو أن من شأن الأخذ به أن يقودنا إلى ما لا نحمد عقباه من نتائج. وينطلق كاتبنا في دعوته إلى تطوير اللغة وقواعدها من منطلقين: الأول أن كثيرا من الكتاب والخطباء العرب يخطون في لغتهم، وأن التلاميذ والطلاب يشكون مر الشكوى من حصة اللغة العربية ولا يرون فيها شيئا أكثر من كونها عبئا ثقيلا لا بد أن يتحملوه كي ينجحوا في امتحانات آخر العام، والسلام، غير واجدين أية لذة في دراستها. ثم إنها ليست وسيلة طبيعية في التعبير عن أفكار من يستعملها ومشاعره، بل عليه أن يتكلفها تكلفا. والثاني أنها لم تعد تسير العصر أو تفي بمتطلبات التعبير عنه بعد أن طال بها الزمن دون أن يطرأ عليها ما تحتاجه من تطور، على عكس اللغات العالمية الأخرى التي لا يكتفى أصحابها بما يعترىها من تطور طبيعي، بل يحدثون فيها ضربا آخر منه يقصدونه قصدا.

يقول أ. الشوباشي: "كثيرا ما فوجئت بكبار المثقفين يخطون أخطاء لا تُصَدَّق في لغتهم الأم التي يكتبون ويبدعون بها، وبعض هؤلاء أو

معظمهم يُعَدُّون من رموز الأدب والكتابة في مصر والعالم العربي... وعندما كنت أقارن حالنا بالآخرين كنت أجد نفسى مضطرا لأن أعترف بأنه لا يوجد مثقف واحد في فرنسا أو إنجلترا أو إسبانيا أو حتى البرازيل يخطئ في لغته الأم بهذه الصورة. فهل كل الشعوب العربية بمثقفيتها ومفكرتها أصبحت معوقة ذهنيا بحيث لا تستطيع تعلم اللغة والإمام بما إماما سليما؟ وإذا سَعْنَا باب المقارنة مع الآخرين نجد أن أى سكرتيرة متواضعة حاصلة على شهادة متوسطة في أى دولة غربية قادرة على أن تكتب بنفسها خطابا دون أخطاء لغوية... فهل السكرتيرة الفرنسية تمتلك قدرات ذهنية أرقى من المثقفين وأصحاب الشهادات العليا في العالم العربي؟ بالطبع لا. إذا فالحلل يكمن في الطرف الآخر من المعادلة، وهو اللغة المستخدمة عند كل من الطرفين... فاللغة الفرنسية طيبة وسهلة ومباشرة، كما أن السكرتيرة، مثلها مثل كل من يجيد الفرنسية، لديها أدوات تسهل مهمتها وتجعلها قادرة على تجنب الخطأ. وعلى رأس هذه الأدوات قاموس اللغة الفرنسية الذى يقوم على ترتيب الحروف الأبجدية، بالإضافة إلى ترسانة من القواميس الخاصة بالقواعد وبالترادفات وغير ذلك من الكتب التى يتعلم أى تلميذ فرنسى كيفية استخدامها فى المدرسة" (ص

والرد على هذا سهل غاية السهولة، فقد كان الكتاب والعلماء والأدباء والشعراء العرب طوال الخمسة عشر قرنا الماضية يستخدمون لغتهم استخداما سليما وسيطرون عليها ويدعون بها على أحسن وضع، فلماذا يعجز كثير منهم الآن عن أن يصنعوا صنيع أسلافهم؟ إنه الكسل العقلى والاكتفاء بأقل القليل. وهو عيب شامل، وليس خاصا بالكتابة فحسب، بل كل صاحب حرفة أو عمل يعانى من نفاذ الصبر، وليس عنده من طول اليال ما يساعده على تجويد ما تصنع يده. وهذا هو السبب فى أن عماراتنا أحيانا ما تنهار الآن قبل أن يمر عليها سوى أشهر أو سنوات معدودات. وهو نفسه السبب فى أننا نشكو من إهمال الصناعات والعمال، وهو أيضا السبب فى أن كثيرا من شوارعنا ممتلئة بالحفر والمطبات والقاذورات والأصوات العالية المزعجة والبذاءات المقذعة التى تشمئز منها النفوس الكريمة، وأن البلاعات فيها إما أعلى من مستوى الأرض أو أوطأ منها، وكثيرا ما تكون مكشوفة بحيث يقع فيها الأطفال لتبتلعهم بأفواهها الفاغرة وتغييهم فى بطونها إلى الأبد، وأن كل شىء فى حياتنا تقريبا قبيح ومشوه، وأنا لا نستطيع أن نعتمد على أنفسنا فى توفير ما نحتاج إليه من

طعام أو ملابس مثلا، ناهيك عن تصنيع السيارات والحواسيب ومعدات القتال... إلخ. ثم إنك يا أ. شوباشي تعرف أن كثيرا جدا ممن تسميهم مثقفين وكتّابا كبارا ليس لديهم اطلاع كاف على اللغة أو التراث رغم أنهم كثيرا ما يتعرضون لهما بالكتابة والتقويم. أليست هذه محنة؟ ولسوف أعطيك هنا مثلا سريعا على ما أقول: فقد كتب جمال الغيطاني في روايته المسماة بـ "الزيتي بركات"، والتي يطنطن لها البعض بغير حق، أن اليهود قد طاردوا النبي محمدا بالحجارة من فوق أسوار الطائف حين التجأ إليها في عهد الدعوة المكية، وأن امرأة من يهود هي التي أكلت (لاحظ: "أكلت" لا "لاكت") كبد حمزة رضى الله عنه (دار المستقبل العربي / ط ٣ / ١٩٨٥م / ٢٢٥). وهذا، كما ترى، كلام مضحك بل تخريف عجيب إن وقع من أى تلميذ صغير كان جديرا أن يعاقب على جهله بمثل هذه الوقائع الأساسية في سيرة نبينا عليه السلام، فالتلاميذ والطلاب في كل مراحل الدراسة ونوعياتها، بما فيها مدرسة الصنائع التي تخرج منها الكتّاب، يعرفون أن الذين طاردوا النبي في الطائف ورَمَوْهُ بالحجارة أو انداك هم عبيدُها وصبيائها وسفهاؤها من المشركين وليس اليهود، لأن اليهود لم يكونوا قد ظهروا في حياة النبي عليه السلام بعد. كما أن التي

لاكت كبد حمزة، رضى الله عنه (لاكت لا أكلت) هى هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان لا امرأة من يهود، وكان ذلك عقب غزوة أحد . ومعروف أن ذلك إنما وقع بعد الهجرة بالقرب من المدينة، وليس فى الطائف فى العهد المكي! والغيطان أحد الكتاب الذين قد ترى فيهم طائفة من نقاد آخر زمن أدبيا ذا شأن، فضلا عن أنه كثير الحديث عن ولعه بالتاريخ الإسلامى، مما يجعلنى أتساءل: ترى ماذا كان يمكن أن يكون علمه بهذا التاريخ لو لم يكن ولعا به إلى هذا المدى؟ كما أن فى لغته ضعفا وركاكة استقرا فاروق عبد القادر فأصلاه فى الكتاب الذى صدر له فى سلسلة "كتاب الهلال" منذ شهور نارا حامية. ولو كان محمد مفيد الشوباشى حيا لأسمعه هو وأمثاله من الكتاب ما يؤلمهم جزاءً وفاقاً على هذا الضعف المزرى فى لغتهم القومية! والمصيبة أن المؤلف لم يتنبه ولا نبهه أحد من حوله لهذا الجهل على مدى الطباعات الثلاث التى طُبِعَها الكتاب فيصححه!

وبالنسبة لماذا كان الشوباشى والمنفلوطى والعقاد والرافعى وإبراهيم رمبى والمازنى وأمين الزيماني ومطران ونعيمة وجبران وكرم ملحم كرم ومَلِك حَفنى ناصف ومى زيادة والزيات والصيرفى والسحرتى وعنان



وهيكل ومحمد لطفى جمعة وفخرى أبو السعود وشكيب أرسلان وكرد  
على وشفيق جبرى ونزار قباني وسعد الله ونوس وغادة السمان وعبد  
القدوس الأنصارى وأحمد السباعى وخليل سكاكيني وابنته وداد وإبراهيم  
طوقان وأخته فدوى وهارون هاشم رشيد ومحمد عزة دَرُوزَة ونازك  
الملائكة والجواهري والسيّاب وعبد الكرم غلاب ومحمود المسعدى  
وحسن حسنى عبد الوهاب ومحمود شلتوت والسحرار وباكثير وأمين  
يوسف غراب وزكى نجيب محمود وزكريا إبراهيم ومحمد الغزالى وخالد  
محمد خالد وعبد الرحمن الشرقاوى مثلاً بهذه القوة والمتانة فى الأسلوب،  
ولم يتخرج أىّ منهم من أى من أقسام اللغة العربية بالجامعة، بل إن عدداً  
منهم لم يتلقوا تعليماً جامعياً أصلاً؟ حتى سلامة موسى، الذى كان كثير  
العيب على اللسان العربى ويرميه بالبداوة ويعلم كراهيته له لأنه اللسان  
الذى نزل به القرآن، يخلو أسلوبه من الأخطاء التى تيرقش كتابات أدبائنا  
الذين تسللوا إلى ميدان الأدب والفكر فى غفلة من الزمن! ثم لماذا هذا  
الضعف الشائن فى كثير من كتاب هذا الجيل بالذات؟ أتكون اللغة العربية  
قد انقلبت بين عشية وضحاها من لغة يمكن إتقانها لمن يريد ويذل فيها ما  
تحتاجه من جهد واهتمام إلى لغة عصيّة شُموس؟ ولكن هل هذا مما تسمح

به طبيعة الأشياء؟ إن المشكلة هي أننا أصبحنا فاقدى الصبر، على طريقة العوام الذين ما إن تبدأ في شرح ما تريده لهم حتى يفاجئوك بقولهم دون أدنى حياء: هات من الآخر! وعبثاً تحاول أن تعرف ما الذى يستعجلهم كل هذا الاستعجال فلا تجد إلا نفاذ الصبر وقلة الأدب! فحياتهم، والحمد لله، فارغة من أى شىء مهم، وكل ما هنالك أنهم يفتقرون إلى ذلك الصبر الذى تحدث عنه الشيخ محمد عبده في تفسيره لسورة "العصر" فأفاض وأمتع، وهو الصبر الإيجابي الذى بدونه لا تقوم حضارة ولا يتم تقدم: الصبر على مشقات العمل والإنتاج والإبداع والإتقان والتخطيط والاهتمام بالتفاصيل والالتزام بالنظام الدقيق والحرص على المراجعة والعمل على إصلاح الخطأ أولاً بأول...وما إلى هذا.

إن الناس الآن تبدو وكأن عفريتاً قد ركبها، وكل ما يهمها هو أن تأخذ فلوساً، أما أن تقدّم لك لقاء هذه الفلوس الخدمة التى تريد على الوجه الذى يرضى الله ورسوله فكلاً وألف كلا! وبالمناسبة فكاتب هذه السطور، الذى هو أنا، رغم تخصصى فى الأدب العربى، دائماً ما أراجع المعاجم وكتب النحو والصرف حتى فيما أنا متأكد منه، وذلك كى يجيئ أسلوبى على أحسن ما أستطيع. ولست أعرف ذلك الاطمئنان الكاذب

الذى يأخذ كثيرا من الكتاب فلا يراجعون شيئا مما يكتبون البتة. ثم إنى أجد فى هذه المراجعات متعة عقلية وفنية لا تقدر بثمن، كما أنها توسع أفق معارفى وتكسبى الثقة بنفسى. وأنت نفسك يا أ. شوباشى قد قلتها: فالسكرتيرة الفرنسية تتدرب لمهنتها بعدد من معاجم اللغة والإملاء وما إلى هذا مما يعصم ما تكتبه من كثير من الأخطاء التى يقع فيها أمثالها عندنا ممن لا يهتمون بأن يكون فى حوزتهم قاموس فردّ يوحد الله لأمن لا يفكرون أصلا فى تثقيف عقولهم ولا التألق فى كتاباتهم، ولا شغلة طول النهار لهم إلا الكلام عن تجميع البامية وتقلية الملوخية والفسطان التى اشترته فلانة والطلاق الذى وقع على رأس علانة... وهلمّ جرّاء. ولا أحسب الرجال يختلفون عن النساء كثيرا فى هذا السبيل! إنه الفرق بين مجتمع متحضر مثقف ومجتمع لا تهتم الغالبية الساحقة من أفرادها إلا بالطعام والشراب والتسالى الخفيفة كمشاهدة المرناء وحل الكلمات المتقاطعة والتأمر على الجيران ومكايدهم ونحوه، حتى إن كثيرا من دور النشر عندنا لم تعد تطبع من الكتب التى تصدرها أكثر من خمسمائة نسخة للكتاب تباع فى عدة أعوام! يا أ. شوباشى، أنت تنكأ الجراح، فبالله عليك لا تهتم اللغة العربية.

إننا، في هذه الأيام النحسات، شعوب تعيش خارج خريطة التاريخ، شعوب لا قيمة لها حضارية، شعوب تستهلك ولا تبدع! إن العرب والمسلمين، يوم أن كانوا يتمتعون حقاً بالثقة بأنفسهم والإيمان برهم والقدرة على التضحية والتحمس للعمل والإنتاج والسعي في أعقاب العلم واللاهات خلف الثقافة الرفيعة، قد فتحوا البلاد وبسطوا سلطانهم ولغتهم ودينهم على الدنيا في بضعة عقود قليلة من السنين رغم أنهم لم يكونوا يملكون من الإمكانيات شيئاً يذكر. وكانوا في ذلك الوقت أيضاً يقبضون على زمام لغتهم أحسن ما يكون القبض على الزمام، أما الآن فانظر ترّ ماذا أصبح حالهم. إنهم يصعبون على الكافر، وإسرائيل، التي تتكون من عصابات متنافرة من أرجاء الأرض المتباعدة، تسومهم الخسف والهوان دون أن يستطيعوا أن يقولوا لها: "بِم"، رغم أنها من الناحية العددية لا تبلغ خمس معشارهم! ويوم أن يعود لهم سابق عزهم ومجدهم فعندها لن نسمع من يقول إن العربية صعبة أو إنها تحتاج إلى حذف هذا الجزء أو ذاك من قواعدها وتقريبها إلى العامة. إنها منظومة واحدة، والحال هنا هي نفسها هناك. ولهذا ترانا ضعفاء حتى في ميدان الرياضة واللعب مع توفر الإمكانيات اللازمة للتفوق في هذا المجال. لكنه، مرة أخرى، الكسل

واللامبالاة وغياب الروح وضعف الشعور بالكرامة القومية والظن بأن  
 الفَهْلَوة والبَكْش يمكن أن يوصلانا إلى ما نريد، مع أنه قد ثبت لنا مرات  
 ومرات ومرات أن هذا الأسلوب لا يودى إلى غير الكوارث، لكننا لا  
 نتعظ أبدا! ترى أمضى في هذا المَوَال أم الأفضل أن أكفأ على الخبر  
 ماجورا وأسكت؟ أما أنا فأوثر أن أسكت! وعلى الناحية الأخرى أستطيع  
 أن أعد لك أمثلة على سهولة إتقان اللغة الفصحى لمن يريد بحق أن  
 يتقنها: فقد كان معنا في المدينة الجامعية في النصف الثاني من ستينات  
 القرن الماضي طلاب من الصين والاتحاد السوفييتي وبعض البلدان الأفريقية  
 والآسيوية يحسنون الحديث والكتابة بما مع أنهم إنما تعلموها في بلادهم لا  
 في بلد عربي. كما أذكر فتاتين صغيرتين لأب مصري وأم بريطانية التقينا  
 بهما في أوكسفورد في أواخر العقد الثامن من القرن الفائت، وكانتا  
 تحسان العربية الفصحى إلى حد كبير حديثا وكتابة رغم أنهما لم تكونا قد  
 تخطتا الثانية عشرة من عمرهما. وعندما كنت في جامبيا في غرب أفريقيا  
 في منتصف الثمانينات من القرن المنصرم تعرفتُ إلى شاب أفريقي من  
 سيراليون رأيت لديه اهتماما بأن يكمل دراسته في اللغة العربية، وكان يبيع  
 في السوق بعض الأشياء الصغيرة التي تهم المرأة بغية أن يوفر شيئا من المال

يستعين به على هدفه. والشاهد في الحكاية أنني أردت أن أستوثق من مدى معرفته بلغة العرب التي درسها كلغة أجنبية ولم يَعدُ في تعليمه المدرسيّ الثانية الثانوية، فعقدت له امتحانا في النصوص والقواعد فوجدته قد أحرز درجة عالية رغم انقطاعه عن الدراسة منذ وقت ليس بالقصير. وكان يكلمني باللغة الفصحى بسهولة كبيرة. وقد دفعني هذا إلى تشجيعه واستحثائه على مواصلة تعليمه إلى النهاية، بل إنني حين عدت وقتها إلى مصر أرسلت إليه طَرْدَيْن (أو بلغة البريد في بعض دول الخليج: بَعِثَتَيْن) من الكتب. كذلك كانت مَيَّ زيادة لا تستطيع في البداية أن تكتب بالفصحى. كما ينبغي، بل تستخدم الفرنسية، ثم بدا لها أن تتقن لغة القرآن، وصحَّ منها العزم على ذلك، وساعدها في هذا السبيل أحمد لطفي السيد. وكان من بين ما نبهها إليه وأخذها فيه بالحزم وجوب قراءة القرآن الجيد والتضلع من أسلوبه وموسيقاه... حتى أصبحت في نهاية الأمر واحدة من أكابر كتاب العربية وأصحاب الأساليب فيها. وبالمناسبة هناك من بين المستشرقين من يتقن لغة القرآن أفضل من كثير من كتاب هذه الأيام عندنا! كما أن مئات العلماء الهنود والباكستانيين والإيرانيين يكتبون باللغة العربية ويتكلمون بها أفضل من كثير من أبناء العربية!

أما عن التلاميذ والطلاب العرب وضعفهم في لغتهم الأم فيقول كاتبنا: "ومن منطلق معرفتي بمستوى التعليم في فرنسا وغيرها من الدول الغربية أستطيع أن أجزم بأن المستوى اللغوي لخريجى الجامعات المصرية من غير المتخصصين يوازي مستوى تلميذ في بداية المرحلة الإعدادية هناك في لغته الأم. فهل يعكس هذا نبوغ تلاميذ العالم الغربى وتخلف طلاب العلم عندنا؟ بالتأكيد لا، فإن المستوى الذهنى متقارب بين الاثنين. إنما العضلة تكمن في اللغة العربية التى ترقى تعقيدها إلى مستوى اللوغاريتمات على عقول غير المتخصصين... فعلينا بعيدا عن النفاق أن نعتز بأن طلبة المدارس يكرهون حصص اللغة العربية وينعون همها أكثر من أى مادة تعليمية أخرى. فإلى متى نجعل أطفالنا وشبابنا يتجرعون عذاب القواعد المعقدة التى عفا عليها الزمن ولم تعد تواكب العصر؟" (ص ١٢). هذا ما قاله الكاتب، وأنا أزيد عليه أن الأغلبية الساحقة من الطلاب المتخصصين في اللغة العربية وآدابها لا تعرف شيئا ذا قيمة عن أدب أمتهن أو لغتهن، بل لا يحسنون الكتابة دون أخطاء إملائية فادحة، بل لا يعرف كثير منهم كيف يضبط النص بالفتح والكسر والضم... إلخ مما دفع زميلا لنا ظريفا إلى القول بأن كل واحد من هؤلاء الطلاب، هروبًا من همّ التعلم والتفكير،



يحمل مخلاة في جيبه مملوءة بما شئت من الفشحات والكسرات والضمّات  
والسكنات والشدّات والتنوينات، ثم إذا ما طولبوا بتشكيل نص من  
النصوص أخرجوا المخلاة ومدّوا أيديهم فيها وكبشوا حفنة من محتوياتها ثم  
رشوها كيفما اتفق على كلمات النص فتقع حركات التشكيل هنا وهناك  
اعتباطاً، وأن هذا هو السبب في أن بعضهم قد يضع مثلاً على أول حرف  
في الكلمة سكونا ثم يُتبعه على الحرف الثاني بشدّة... وهكذا بما لا يُعقل  
لأنه مستحيل. لكن كيف يكون مستحيلاً، ونحن قوم بارعون في صنع  
المعجزات بما لا قِبَل به للغريبين سادة العالم الآن في ميادين العلم والثقافة  
والإبداع؟ ألسنا نحن الذين دهّنا الهواء دُوكُو؟ ألسنا نحن الذين عبّأنا  
الشمس في زجاجات؟ ألسنا نحن الذين صرّرنا الفيل في المنديل؟ هل  
يستطيع أحد أن يدلّني على قوم آخرين حققوا هذه الإنجازات أو نصفها  
أو ثلثها أو عشرها أو حتى واحداً على الألف أو على المليون منها؟ إن كل  
ما فعله الغربيون مثلاً أنهم اخترعوا القطارات والسيارات والغواصات  
والقنابل والصواريخ وسفن الفضاء والحاسوب والمِشْبَاك (التّص) وما إلى  
هذا مما لا إعجاز فيه لأنه يخضع للقوانين التي يسير عليها الكون، أما نحن  
فنأتى بالمستحيل الذي لا يستطيعه أحد سوانا من البشر! إلا أنني ينبغي أن

أضيف أن الأغلبية الساحقة أيضا من الطلاب في أى تخصص لا يفترون عن طلاب أقسام اللغة العربية في الضعف العلمى. فالشكوى عامة بين الأساتذة من أن الطلبة لا يهتمون بما يتلقون من علوم ودروس، وأن كل مهمهم هو النجاح فى الامتحان والحصول على الشهادة من أى طريق، ولهذا تراهم لا يبذلون الجهد المطلوب ولا يقرأون شيئا إلا فى الشاذ النادر. وكنت اليوم فى زيارة لصديق مريض فى المستشفى، ومررت فى طريق العودة ببائع للكتب القديمة أعرفه فتوقفت عنده لأشترى بعض ما أجدنى بحاجة إليه منها، وأخذت أسأله كعادتى عن مدى إقبال طلاب الجامعة التى يقع جوسقه على الرصيف المواجه لها على شراء الكتب والقراءة، فجاءت إجابته على ما توقعت من أنهم لا يكادون يقرأون شيئا، اللهم إلا إذا كلفهم الدكتور ببحث، فإنهم عندئذ يأتون فيسألونه عن الكتب التى يمكن أن يجدوا فيها ما ينقلونه فى هذا البحث. أقول: "ينقلونه"، لأن البحث عندهم لا يعنى أكثر من نقل بضع صفحات من هذا الكتاب أو ذاك دون فهم: نُقلها نقلا تكثر فيه الأخطاء الإملائية، ودون أية إضافة شخصية!

فالعيب يقع أساسا فى هذه المنطقة، منطقة اللامبالاة بالقيم الثقافية

والعقلية، والترهل الذهني والذوقى. ودعنا من حكاية ارتفاع سعر الكتاب، فالعرب ليسوا كلهم فقراء، وهم جميعا، سواء منهم الفقراء والأغنياء، حريصون على اقتناء أدوات الحضارة الحديثة مهما كانت غالية الثمن. ثم هاهى ذى إصدارات "مكتبة الأسرة" مثلا فى مصر تباع بأسعار زهيدة، فهل تغير المصريون وأضحوا أكثر حُبًا للقراءة؟ أستطيع أن أجيب بمـلء يقينى على ذلك السؤال بالنفى، وإلا فأين موضع المكتبة فى البيت المصرى؟ إن المكتبة عندنا، إن وُجدت، ليست فى معظم الأحوال أكثر من مكان توضع فيه التحف وجهاز الرِّنَاء وبعض الدباديب، وكان الله يحب المحسنين! ترى كيف يمكن أن يسيطر على لفته القومية من لا يقرأ شيئا فى هذه اللغة ولا يستطيع أن يتذوق روائعها بل لا يبالى بأن يتذوق هذه الروائع، وإذا حدثت عنها كنت كمن يتحدث عن إحدى غرائب واق الوراق؟

وفضلا عن ذلك فالمنهج الذى تُعلِّم به قواعد اللغة لا يودى الغرض المطلوب، إذ الملاحظ أن أساتذة النحو غالبا ما يمحسون أنفسهم فى دائرة المعلومات النظرية، فترى الطلاب لهذا يحفظون القواعد حفظا، وقد يستطيع بعضهم (بعضهم فقط) أن يُعَرِّبوا ما يُطَلَّب إليهم إعرابه من

كلمات أو جمل، لكنهم لا يقدرون مع هذا أن يقرأوا أو يكتبوا على نحو صحيح! كذلك قدروس النحو والصرف محشوة بالتفصيلات التي قلما تفيد عارفها في ميدان الواقع. وأنا أزعم أن مجموعة القواعد التي يحتاج إليها الشخص العادي لكي يكتب ويقرأ على نحو سليم ليست بالكثيرة ولا المرهقة. والمهم هو الاهتمام بالدروس التطبيقية التي يردد فيها الأستاذ الأمثلة الأساسية في كل درس، ويظل الطلاب يكررونها بعد ذلك في المدرسة أو الجامعة والبيت قراءة وكتابة حتى تنطبع في أذهانهم وأيديهم وأذنانهم وتنطلق بها ألسنتهم وأقلامهم كأنها سليقة فيهم. والمهم أيضا أن يقتنع الطالب بأن اللغة قيمة قومية ودينية وثقافية واجتماعية تستحق أن يبذل فيها الجهد والتعب، أما قبل ذلك فكلا وألف كلا. ولقد كنت أفعل هذا منذ صباى أنا وزميل لى أصبح الآن أستاذا في الجامعة مثلى حتى أتقنا لغتنا مبكرا دون أن نجد حولنا من يأخذ بأيدينا، بيد أن تحمّسنا لهذه اللغة وأدها وطموحنا من البداية إلى أن نكون من الكتاب والأدباء كان نعم المعين! وقد كان هذا هو نفسه الأسلوب الذي جريت عليه مع الطلاب حين عهد إليّ، في أواسط السبعينات من القرن البائد، أن أدرّس لهم، وأنا لا أزال مدرسا مساعدا، مادة التدريبات النحوية رغم عدم تخصصي في

النحو أصلاً، فكان اهتمامي كله تقريباً منصباً على التطبيقات وعلى تمرينهم على القراءة والكتابة الصحيحة. وقد أثمر هذا الأسلوب مع عدد منهم أصبحوا بدورهم فيما بعد دكاترة في الجامعة، على عكس الباقين الذين لم يكونوا مهتمين بالأمر، فإنهم لم يستفيدوا كثيراً كما لا أحتاج أن أقول. أما الآن فإن الغالبية الرهية من الطلاب لا تريد أن تبذل أى جهد حتى إنهم لا يفكرون مثلاً في الرجوع إلى المعجم، بل لا يعرفون كيف يستعملونه إذا حدثت المعجزة وبدأ لهم أن يستفسروا عن معنى كلمة من الكلمات. فإذا نهناهم إلى أنهم ينبغي أن يرجعوا بأنفسهم إلى هذا القاموس أو ذاك أخذوا ينظرون إلينا في استغراب بل في بلاهة وكأننا نخدثهم عن عجيبة من عجائب الحياة! والغريب أن هؤلاء الطلاب أنفسهم إذا ما ألفت الأقدار بواحد مثلى في طريقهم بعد تخرجهم واشتغالهم ببعض الحرف أو الصنائع التي يلجأون إليها في هذا العصر الممتلئ بالبطالة فإنهم يستطيعون بمنتهى السهولة خداعي أنا الذى أظن نفسى ذكياً، ويلعبون بى وبأسلافى بعبقريّة شيطانية عجيبة كما يلعب الحواة بالبيضة والحجر! والسؤال هو: كيف قد صاروا أذكاء على هذا "النحو" يا ترى، وهم الذين لم يكونوا يفهمون شيئاً فى "النحو"؟ إنها كراهية العلم، والبراعة مع

ذلك في الفهلوة. وشغل الثلاث ورقات! إنهم أبناء مجتمعهم وبيئتهم! وللتفكهة أذكر أن أحد أساتذة النحو المشهورين كان قد ألف مذكرة في تلك المادة سماها: "تحفة الطلاب، في النحو والإعراب"، فكنت، لشدة ضيقي بمستوى الطلاب المتدني والمخجل في لغتهم، أقترح عليه أن يغير تسميتها إلى "ضرب القيقاب، في رؤوس الطلاب"، فيضحك حتى يستلقي على قفاه!

وهنا أود أن أوضح شيئا، ألا وهو أن الخطأ سيظل ملازما لكل من يتحدث اللغة الفصحى رغم ذلك، لا لعب في هذه اللغة بل بسبب الطبيعة البشرية التي لا تنفك عن الخطأ مهما حاولت التحرز منه. وقديما قال رسولنا الأعظم: "كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وخير الخطَّائين التوابون". والتوبة من الخطأ في هذا المجال تكون ببذل مزيد من الجهد في مراجعة القواعد وفي تطبيقها في الكلام والكتابة. وهذا الكلام لا يقتصر على فصحاءنا وحدها بل على كل فصحي، ومنها فصحي الإنجليزية والفرنسية والألمانية التي أخشى أن يكون حديث الأستاذ الشوباشي عن تفوق أهلها في استعمالها قد أوحى للقارئ أنهم لا يخطئون فيها كما نخطئ نحن في فصحي لغتنا الأم! كذلك أود أن ألفت النظر إلى أن الخطأ في استخدام

اللغة لا يقتصر على المستوى الفصيح فحش، بل يتشعب أيضا على المستويات العامية. كل ما في الأمر أننا، بسبب عدم وعينا بقواعد العامية، ولأن الأحاديث اليومية التي نستخدم فيها اللهجات العامية ليست مناسبات رسمية، لا نلتفت للخطأ فيها، وبخاصة أننا لا نبتغي فيها المتعة والأناقة كما في الفصحى، بل نكتفى منها عادةً بمجرد التفهيم وتوضيل الفكرة التي نريد الحديث عنها بأى سبيل. بالضبط مثلما لا نلتفت لخطأ من تخطئ في المشى، بينما نتنبه بحدة لمن تخطئ في حركات الرقص مثلا، ومثلما لا نلتفت لإهمال المرأة في لبس مبادل البيت، على حين تكون أعيننا مُفَنِّجَةً لـ أى تقصير في طريقة ارتدائها للملابس السهرة... إلخ. إننا في الواقع لا نكف عن الباباة والتأثأة والفأفأة والتلعثم والتردد وقطع الجملة قبل تمامها واستخدام الكلمات في غير موضعها واللجوء إلى كثير من جمل الحشو لملء الفراغات في أحاديثنا العامية اليومية، وكثيرا ما نخطئ أيضا في نطق هذا اللفظ أو ذاك، وتركيب هذه الجملة أو تلك، بيد أننا لا نتنبه لذلك. ولا نلقى إليه بالا لأن اللهجة العامية لا علاقة لها بالرسميات ولا يُقصد بها عادة إلى الإمتاع، وليست لها في أذهاننا قواعد واضحة كالـفصحى نضعها نُصَبْ أعيننا لتتحاكم إليها. ويوم تصبح رسميا، لا قدر



الله، هى لغة الكتابة والمحاضرات والندوات والصحافة والإذاعة وندرس قواعدها فى المدارس والجامعات، فعندئذ سوف نتنبه لما نقترفه فيها من أخطاء! وكل هذا رغم أننا لا نكف لحظة عن استعمالها، على عكس الفصحى التى لا تستخدم إلا فى التأليف والمحاضرات والندوات والخطب وما أشبه! وبالمناسبة فقواعد العامية كثيرة ومعقدة على عكس ما نظن. أقول هذا من واقع قراءتى لقواعد بعض اللهجات العربية، ومنها لهجتنا المصرية التى أذكر أنى راجعت أجروميتها، أيام أن كنت أدرس للحصول على درجة الدكتورية فى بلاد جون بول، فى كتاب وضعه أحد الضباط الإنجليز على عهد الاحتلال البريطانى لمصر يقع فى عدة مئات من الصفحات الممتلئة بكثير من التفصيلات والاستثناءات التى ليس لها ضابط، مما يسبب للذهن الدوار المولم.

وحجة كاتبنا فى المناداة بالتغيير الذى يدعو إليه هى أن العربية الفصحى لم تتطور قواعدها منذ خمسة عشر قرناً كما يقول بحيث لم تعد ملائمة للتعبير عما نريد فى عصرنا هذا (ص ١٣، ٥٥، ٧١)، بل إنه ليدعى أن العرب قد هجروا فصاحتهم تماماً (ص ١٣٥). وإنا لنسأله: متى وكيف عجزت اللغة الفصحى عندنا عن مجارة العصر أو التعبير عن أية

فكرة أو عاطفة نريد التعبير عنها؟ هاهى ذى الكتب تصدر في بلاد العرب في كتل التخصصات مكتوبة بالفصحى، ولم نسمع أن أحدا قد شكّا من أنه عاجز عن التعبير من خلالها عما يريد لا في الفلسفة ولا في الطب ولا في الجيولوجيا ولا في الكيمياء ولا في الطبيعة ولا في القانون ولا في الاقتصاد ولا في السياسة ولا... ولا... رغم أننا لسنا فاعلين حضاريا في هذه الطور المخزى من تاريخنا بل مجرد متلقين في معظم الأحوال. فما بالنا لو أننا كنا من المبدعين مثل أسلافنا في أيام عز الحضارة العربية حين كان العالم يتعلم على أيديهم ويفتح آذانه وأعينه وقلبه لما يقولون؟ ثم هاهو ذا كاتبنا نفسه قد ألف كتابه بهذه الفصحى التى يعنى عليها عجزها وتخلفها! أليس هذا هو التناقض بعينه؟ ومن قبل ردد سلامة موسى هذه الفرية التى افترها جماعة من المبشرين والمستشرقين ممن يسوؤهم أن يروا القرآن أمام أعينهم فهم يعملون بكل ما عندهم من كيد وخبت على محوه عن طريق تدمير اللغة التى نزل بها، وهى اللغة الفصحى. وكان سلامة موسى، ومن قبله بعض شياطين الاستشراق والتبشير، يذعّون بدعوتهم الإبلسية مستخدمين هذه الفصحى التى يزعمون بشأها المزاعم والأباطيل! والذى قرأ سلامة موسى يعرف أنه كثير الكتابة في موضوعات العلوم الطبيعية

والنفسية والفلسفية الحديثة، فبأية لغة يا ترى كتب ما كتب في هذه الموضوعات؟ لقد كتبها بالفصحى! ومع هذا كان يردد دائما في إملال مزعج كاذب أن هذه اللغة هي لغة قديمة لا تصلح أن تكون وعاء للعلوم العصرية. فألقى لنا أن نصدّق هذا السخف الفجّ؟ ويستطيع القارئ أن يجد كلامه ذاك التافه في كتابه "البلاغة العصرية واللغة العربية" (المطبعة العصرية/ ١٩٥٣م / ٤٩ - ٥١). إن مزاعم هذا الرجل ليس لها من معنى إلا أن اللغة الفصحى قد وردت إلينا الآن لتوّها من الماضي البعيد، وعلينا أن نستعين بها في التعبير عن علوم العصر وأفكاره وهي لا تزال بعَبَلها، أو كما كان قداماؤنا يقولون: لا تزال بعُجْرها وبُجْرها! وكأنها ليست ذات تاريخ طويل مرّت فيه بتطورات هائلة جعلتها في كل مرحلة من مراحلها قادرة تمام المقدرة على التعبير عن كل ما يريد منها أصحابها لم تحذهم يوما! ومما قاله ذلك الرجل أيضا في معرض الزرابة على الفصحى والتنفير والتحقير منها بصريح القول ودون أية تورية أو تحميل أن اللغة عند زكي مبارك وابن عربشاه والحكومة المصرية "ليست لغة الديمقراطية والأُتومبيل والتلفزيون، بل هي لغة القرآن وتقاليد العرب" (المرجع السابق/ ٥٤).

وكان كلامه هذا تعليقا على قول زكي مبارك (والعهدة عليه) إن المرأة لا

تستحق إلا الضرب بالحذاء، وعلى استنكار المؤرخ المسلم ابن عربشاه لخلو مراسلات جنكيز خان من عبارات التبجيل والتفخيم التي كان يجري عليها الإنشاء الديواني في عصور التخلف الأدبي، وعلى ما يقوله هو نفسه من أن الحكومة المصرية عندما أنشأت كلية دار العلوم لم تسمح للنضاري بالالتحاق بها. فانظر كيف جاءت إشارته إلى القرآن في هذا السياق المسيء الذي يراد منه اتمام كتاب الله العظيم بأنه يناقض الديمقراطية والعلوم العصرية والتسامح الديني واحترام المرأة وانظر كذلك إلى هذه اللدغة السامة في دعواه الكاذبة بأن العربية التي وصلتنا عن آبائنا وحدودنا غير صالحة للتعامل مع المعارف العلمية الحديثة، إذ يقول: "لم يكن المجتمع العربي القديم يعيش على المعارف والمنطق إلا في أقله، وكان يعيش على العقائد والغيبيات في أكثره، ولذلك يشق علينا في مجتمعنا أن نودى المعاني للمعارف المادية لأن لغتنا حافلة بكلمات الغيبيات والعقائد دون كلمات العلوم الجديدة" (السابق / ٥١). ووجه التدليس والكذب في هذا الكلام أنه يضع العقائد والغيبيات (الإسلامية طبعاً، وليس غيرها) في مواجهة المعارف والمنطق. فهذه واحدة، ولست محتاجاً إلى أن أنص للقارئ على هدفه الخبيث من وراء ذلك. والثانية أنه يتجاهل بكلامه هذا الميراث اللغوي

العظيم الذى ورثناه عن عصور الازدهار العلمى من تاريخنا الحضارى فى مجالات الطب والحساب والكيمياء والطبيعة والفلك والهندسة والفلسفة والجغرافيا والمنطق... إلخ. وقد نقل كاتبنا (ص ٤٠) قول سلامة موسى عن العربية إننا "قد ورثناها من بدو الجاهلية فى عصر الناقة، ويراد لنا أن نتعامل بها فى عصر الطائرة"، وأبدى موافقته على هذا الحكم، وإن كان قد احترز بأنه، على عكس سلامة موسى، لا يريد استبدال العامة بالفصحى (ص ٤٠ — ٤١). ولا أدرى أىَّ خَبَلٍ قد أصاب عقل موسى، الذى كان كثير الطنطنة بالعلم ولا يكف عن التنفج بأنه كاتبٌ عصرىٌّ بل مستقبلىٌّ، فكل اللغات ترجع إلى أصول قديمة لا علاقة لها بالعلوم الحديثة، لكنها مع ذلك تتطور لتواجه المواقف الجديدة التى لم يكن لها بها عهد من قبل. أم ترى اللغات الأوربية التى يمجدها فى الفاضية والملائة قد نزلت من السماء دفعة واحدة كاملة لا ينقصها شىء إلى يوم يُبعثون؟ أرجو أن يرى القارئ الفاضل التواء المنطق والذهن عند من يحاربون لغتنا، وغير لغتنا أيضا!

ولبنت الشاطى، رحمها الله، كتاب شديد الأهمية عن تطور اللغة العربية عنوانه "لغتنا والحياة" تتبعت فيه المراحل التى مرت بها هذه اللغة

العبقرية منذ العصر الجاهلي إلى العصر الحديث، وكيف انفتحت لها القلوب والعقول مع انتشار الإسلام، وكيف كانت تواجه الظروف والأوضاع والمشاكل التي تقابلها وتنتصر عليها، وكيف أثرت واتسعت ألفاظاً وتراكيباً وصُوراً حتى صارت على ما هي عليه اليوم ولم تبق على نفس الوضع التي كانت عليه في الجاهلية أو في صدر الإسلام، بل وسَّعت كل أنواع الفنون والعلوم. وينبغي على القارئ أن يرجع إلى هذا الكتاب كى يكون على ذكر مما حدث للغة الضاد من تطورات هائلة ومتنوعة، ويتضح له تدليس من يريدون أن يبيعوا له الترام في عز النهار متصورين في أنفسهم الذكاء واللَّوْذِعيَّة، وفيه هو البلاء والغباء. ترى هل يمكن لأى بكَّاش أن يدعى أن اللغة التي نكتب بها اليوم هي نفسها اللغة التي كان يستعملها امرؤ القيس كما يقال عادةً، أو حتى لغة ابن المقفع أو الجاحظ أو القاضي الفاضل، أو حتى لغة الرافعي أو الزيات مثلاً؟ إن العربية لم تكف قط عن التطور، ومن يُقَلُّ بغير هذا فهو إما واهم لا يدرك ما يقع حوله وإما جاهل وإما غشاش! ترى أيمكن أن يمر يوم بل ساعة بل دقيقة على أى كائن حي دون أن تعثره التغيرات من كل نوع؟ كلا بالطبع. وهو نفسه الجواب في حالة اللغة.



كما أننا بوجه عام قلما نستخدم الآن صيغ التصغير أو أسلوب الإغراء والتحذير. وبالمثل يندر أن يَصِف أحدنا المنادى العَلَم أو يعطف عليه اسماً آخر، أو يستعمل من أدوات النداء "أَيُّ" أو "هَيَّا" أو حتى الهمزة، أو يستخدم "بَلَّة" بل نقول عادة: "فضلاً عن". كذلك فنحن نلزم في الأعلام الحديثة، والأجنبية منها بالذات، السكون في كل الأحوال، ونكتفى في عبارة "لا حَوْلَ ولا قوَّةَ إلا بالله" مثلاً بفتح اللام من "حول" والتاء المربوطة من "قوة" مهملين الإعرابات الباقية فلا نقول: "لا حَوْلٌ ولا قوَّةٌ" أو "لا حَوْلًا ولا قوَّةً"، ولم نعد نستخدم من أخوات "ظَنَّ" الفعل "دَرَى" (أحمدُ أستاذَه عالماً كبيراً) "المتعدى إلى مفعولين، بالضبط مثلما لم نعد نستخدم في الحال قولهم: "جاؤوا الجَمَاءَ الغفير"... وهكذا. ومن ناحية أخرى فقد أخذ الجمع اللغوي بمصر بكثير من التسهيلات فلم يَرُدْ أى لفظ أو تركيب أو عبارة مستجدة لها وجه من الصحة، ودعا إلى التوسع في القياس بدلا من العناد الحرون الذى يلجأ إليه بعض المتنطعين في اعتراضهم على اعتماد القياس في بعض الاستعمالات الجديدة بشبهة أننا ينبغي أن نلتزم بما ورد عن العرب في هذه المادة أو تلك الصيغة أو ذلك التركيب ولا نقيس على ما قاله . وإذا كان الشيء بالشئ يذكر فقد يكون من



المناسب أن أقول إن قد أصبحت بدورى أكثر تسامحا ومرونة تجاه ما يسارع غيرى إلى تخطيطته بناء على أنهم لم يقابلوا هذا الاستعمال من قبل. ورأى فى هذا الموضوع أن من الصعب الجزم بأن التركيب الفلانى أو التعبير العلانى خطأ ما دام لا يصادم أصلا من أصول اللغة، إذ ثبت لى فى كثير من المواقف أن الاستعمال المَقُول بخطئه ليس فى الحقيقة كذلك، بل كل ما هناك أن المخطئ قد تسرع فحكم على ما ليس له به علم، وبخاصة أنه قد صار سهلا الآن أن يكون تحت أيدينا فى دقائق معدودة كل الشواهد الشعرية أو جُلّها وكثير جدا من شواهد كتابات الفحول القدماء فى الاستعمال الذى نكون بصده بنقرات قليلة على فارة الحاسوب، وذلك كله ببركة الأقراص المدبجة، وهو ما كان علماء العرب يُقنّون فيه الأيام والليالى، وربما الشهور والسنين، كى يضعوا أيديهم على بعضه.

وأما ما كان ينقص العربية من المعانى والمفاهيم والمصطلحات الجديدة مما كان موجودا فى غيرها من اللغات أو مما توصل إليه علماءها أنفسهم فإنها كانت تستحدثه أولاً بأول بطرقها المختلفة كالاشتقاق والنحت والتعريب وإضفاء المعنى الجديد على لفظة قديمة... وبين يديّ، وأنا أكتب

هذا الكلام، كتاب د. عبد الصبور شاهين: "العربية لغة العلوم والتقنية"، الذى يتناول فيه الجانب اللغوى من التراث العلمى العربى وكيف استطاعت لغة القرآن أن تستوعب العلوم المختلفة فى كل مرحلة من مراحل تاريخها حتى العصر الحديث، إلى جانب قضايا الترجمة وصوغ المصطلحات العلمية التى تحتاجها اللغة كلما هلّ عليها علم أو فن جديد. وهو ما يبين أن العربية لم تعجز يوما عن التعبير عن أى فكرة أو مفهوم علمى، على عكس ما يريد إيهامنا به المتعجلون الذين لا صبر عندهم على التحقيق والتحصيل، أو المقلدون الحاطبون فى حبال أعداء هذه اللغة ودينها. كذلك للدكتور كارم السيد غنيم كتاب فى ذات الموضوع عنوانه "اللغة العربية والصحة العلمية الحديثة" يحسن بالقارئ الرجوع إليه أيضا لأهميته الشديدة فيما نحن بصدده. فكيف يقال بهذه البساطة إن نحو لغتنا وصرفها لم يعترهما أى تطور؟ لقد تطورا، لكنه التطور الذى لا يمس جوهر اللغة وسماتها الفارقة، بل يحافظ على خطوطها العامة ويُنقى على شخصيتها. أما ما يريده الكاتب من تطوير فما هو فى الحقيقة بتطوير بل تغيير للملامح اللغة وروحها، وهو كفيل ببتّ الصلة بيننا وبين اللغة التى عرفها أسلافنا وآباؤنا طوال الخمسة عشر قرنا الماضية أو يزيد، وكذلك

الآداب والعلوم التي كُتِبَتْ بها، وقبل هذا وذاك القرآن المجيد. لماذا؟ لأنه يريد أن يلغى، وإلى الأبد، أبوابا من النحو والصرف لا غنى للغة ولا لنا عنها، أما ما توارى من الاستعمالات القديمة مما تحدثت عنه آنفا فإنه لم يُلغَ، بل مازال موجودا في مستودع اللغة بحيث نستطيع أن نستخرجه متى وجدنا أننا بحاجة إليه. فهو يمثل إذن مخزونا إستراتيجيا ينفعنا وقت الضيق، علاوة على أن هناك تحت أيدينا بدائل تغني عنه بحيث لا تفقد اللغة شيئا أساسيا منها: فـ "اخْلُوقْ" مثلا تنوب عنها "عسى"، و"إن... لَمَّا" نستعيز عنها بـ "ما ... إلا"، و"دَرَيْتُ سعيدا وفيًا للعهد" يمكن أن نقول بدلا منها: "تيقنت/ تأكد لي أنه وفيٌ للعهد"، وبالمثل يمكننا أن نقول: "ما أجمل فلانة" عوضا عن "أجملُ بها"... وهكذا. أما إذا حذفنا التثنية والتانيث والإعراب مثلا من لغتنا إلى الأبد، فماذا نحن فاعلون عندئذ؟

ويا ليت الأمر يقتصر على هذا الذي يقترحه أ. الشوباشي، فالواقع أن كل من لا تعجبه اللغة العربية له اقتراحاته التي يريد ليّ عنقها إليها، فما العمل إذن؟ أناخذ بكل تلك المقترحات؟ إذن ففي ضربة واحدة لن يبقى من قواعد اللغة التي نعرفها شيئا أم نأخذ مقترحات البعض ونهمل مقترحات البعض الآخر؟ ولكن على أي أساس سيكون قبولنا أو رفضنا؟

لقد سبق أن نادى قاسم أمين مثلاً في كتيبه المسمى: "كلمات" بتسكين  
 أو آخر الألفاظ. كما نادى عبد العزيز فهمى باصطناع الحروف اللاتينية،  
 وله كتاب في هذا الموضوع اسمه "الحروف اللاتينية لكتابة العربية". وتابعه  
 في ذلك سلامة موسى، الذى نادى أيضاً بإلغاء المثني، ونبذ التذكير  
 والتأنيث في الجمادات والمعاني والأعداد أسوة بالإنجليزية (البلاغة العصرية  
 واللغة العربية/ ١٠٢ وما بعدها). ونادى طه حسين في كتابه "نقد  
 وإصلاح" بأن نكتب الألفاظ كما ننطقها، وهو ما من شأنه إرباك اللغة  
 وإملائها على السواء تمام الإرباك. وألقى أمين الخولى محاضرة عن التحديد  
 في النحو عام ١٩٤٣م نادى فيها بتنوين كل الأسماء وإلغاء باب "المنوع  
 من الصرف" إلى غير رجعة، وإعراب المثني بالألف دائماً، وإلزام "أبوك  
 وأخوك" الواو باستمرار، وإجراء جمع المذكر السالم في كل أحواله مجرى  
 كلمة "حين"، أى بالياء والتنوين مثل الاسم المفرد. ويمكن قراءة هذه  
 المحاضرة في كتابه "مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب".  
 وقبل هذا كله نادى بعض المستشرقين والمبشرين، مثل ولهم سبيتا وسلدين  
 ولمور ووليم ولكوكس، بمجران الفصحى واستبدال العامية بها، وتابعهم في  
 هذه الدعوة المشؤومة بعض العرب من مسلمين ونصارى: ومنهم عثمان

صبرى، الذى ألف فى ذلك بحثين على الأقل وطبق دعوته فى روايتين كتبهما على النحو الجديد الذى اقترحه بلغة متكلفة مصطنعة، ولويس عوض، الذى كتب "مذكرات طالب بعثة" بلغة لا ندرى من أين أتى بها، لأنهما لا تشبه أيا من العاميات التى نعرفها، وسعيد عقل الصليبي اللبناني الذى كان يريد، لا ترك الفصحى فقط، بل إحياء الرعة الفينيقية أيضا من بعد أن أجمعها الله... ترى ما الذى يبقى من لساننا العبرى بعد هذا كله؟ وما سر هذه الدعوات المحمومة التى انطلقت أول ما انطلقت من قبل المستشرقين والمبشرين؟ إنهم يزعمون أن الفصحى لا تستطيع استيعاب العلوم الحديثة أو التعبير عنها؟ فهل يا ترى تستطيع اللهجات العامية المتخلفة التى لا تاريخ لها على الإطلاق فى مجال الآداب أو العلوم أو الفنون، اللهم إلا بعض الأزجال قديما فى الأندلس، وهذه الأغاني والمسرحيات التى نسمعها فى المدياع أو نشاهدها على المسرح أو فى المناء فى عصرنا الحالى، ثم الأمثال الشعبية؟ وهذا كل ما هنالك. ثم ما القول فى هذه الآلاف المؤلفات من الكتب والبحوث والمقالات والدراسات والمحاضرات والأحاديث العلمية التى صيها أصحابها فى قالب الفصحى ولم يَدُرْ فى خلداهم لحظة أن يكتبوها بالعامية؟ أو علينا أن نلغى عقولنا

ونصدق هذا التدليس؟ إن مثل هذه الشبهات لا تجوز على أى شخص له عقل فى رأسه.

والآن نريد أن ننظر فيما قاله كاتبنا لنناقشه. ولكن لا بد أولاً من إيضاح نقطة على جانب كبير من الأهمية، فقد يستغرب بعض القراء موقفى هذا الذى يبدو متشددًا ويتصورون أنه مبالغ فى الخوف مما لا مخافة فيه. والواقع أن المسألة ليست كما تبدو للعيان، إذ إن هذه الخطوة التى يدعونا المؤلف إلى اتخاذها هى بمثابة خلع الطوبى الأولى من الجدار، التى إن تم خلعها كان خلع الأحجار الباقية أسهل شئ فى الوجود كما هو معلوم، فمعظم النار من مستصغر الشرر، ورحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة. وهناك مثالان قريبان جدا خبرتهما بنفسى، إذ صدر منذ عامين كتاب يحمل فيه صاحبه على سيويه ويدعو إلى نبذ الإعراب والفصحى والاستعاضة عنها بالعامية، وشرعت فى كتابة رد عليه رغم أن أحدا لم يسمع به من قبل ورغم ما يعكسه الكتاب من جهل مبین وهور أحق. وكان رأى بعض من عرفوا بنيتى أنه لا داعى لأن أشغل نفسى بشخص مثله ليس على شئ من العلم. إلا أننى كان لى رؤية أخرى، فقد تنبهت إلى مغزى أن تنشر له كتابه التافه دار نشر كبيرة مشهورة وفى حلة جذابة

فاخرة، وأن يكتب عنه بعض الصحفيين واصفا إياه بأنه حلقة في سلسلة اللغويين الكبار بدءا بابن جني، وانتهاء بإبراهيم اليازجي. المهم أنني، بعد أن أصدرت بعدة أشهر كتابي "دفاع عن النحو والفصحى — الدعوة إلى العامة تطل برأسها من جديد"، الذي قُذْتُ فيه الهراء الماسخ الذي هرف به صاحبا، علمت من أحد الأصدقاء أن ذلك الجاهل المتهور قد أصدر كتابا آخر يهاجم فيه كتب الأحاديث والمحدثين، على الرغم من أنه كان حريصا، أثناء هجومه على النحو وسيبويه، أن يطمئننا بأن دعوته لا تَمَسُّ الدينَ بأى سوء. وهاهو ذا الدين قد مسّه هو نفسه لا سواه من خلال إنكاره الأحاديث النبوية التي تمثل المصدر الثاني للتشريع في الإسلام، ولم تمرّ على طمأنته الكاذبة لنا إلا ستان اثنتان لا غير. والبقية تأتي! كذلك كنت قد لاحظت، في ثمانينات القرن الماضي، ما يكتبه خليل عبد الكريم من مقالات في جريدة "الأهالي" يدعو فيها إلى وجوب النأي بالدين عن ميدان السياسة والاقتصاد والاقْتِصَار منه على جوانب العبادة والأخلاق حفاظا على قدسيته وطهارته كما يقول هو وأمثاله، وكأن الدين لم يزل لتطهير السياسة والاقتصاد مما يخالطهما من رِجْس، بل لنُلْفّه في ورق سلوفان ونضعه على الرفّ كي نمتّع أبصارنا به أو لنبلّه

ونشرب منقوعه على الریق. ثم وجدتُ بعد ذلك بقليل أنه شرع يلزم هذين الجانبين أيضاً، لِثُبُوتِ التَّنْقِصِ من الصحابة، مع بعض الخطبات من تحت لتحت في شخص النبي عليه السلام، وهو ما استفزني للرد عليه وإظهار جهله ونسياته السيئة في كتابي "اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة". ثم كشف الرجل الغطاء تماماً عن مقاصده وظهر كتاب باسمه يقول فيه عن سيد النبيين والمرسلين إن خديجة بنت خُوَيْلِدٍ وورقة بن نوفل هما اللذان أعداه للنبوّة وصنعا صناعة، وإن خديجة قد "صَنَعَتْهُ وَقَلَّوْظَتْهُ" (هكذا بالنص على أسلوب الحُوذِيَّةِ والحشاشين)، فدفعني هذا مرة ثانية إلى الرد على قلة الأدب تلك في كتاب بعنوان "لكنّ محمداً لا بُوَائِيَّ لَهُ" عبّرت فيه عن شكّي القوي في أن يكون مؤلفه شخصاً ينتمي إلى أسرة مسلمة مهما يكن رأيه الحقيقي في دين محمد، ووجّهتُ بناءً على أسباب رأيها جدّ وجيهة، أن يكون وراءه مبشر رقيق يتنقّب بالاسم المذكور على الغلاف، برضا صاحبه طبعاً! ثم هاهو ذا مؤلفنا، على رفته ودماثة نفسه كما قلت، قد وقعتُ له على عبارة عارضة، لكن لما دلالتها الخطيرة، إذ وجدته يقول في الصفحة المائة والعشرين، زارياً على من سماهم "الذين يفرضون مرجعيات سَلَفِيَّةً لكل



قضايا المجتمع ومشكلاته المستعصية"، إهم "يقحمون الدين الحنيف في كل شيء. ليس في السياسة فقط، لكن في التعاملات اليومية والعلاقات الاجتماعية والقوانين وقواعد السلوك العام". ترى يا إلهي ما الذي يتبقى من "الدين الحنيف" بعد أن ننحيه عن ميدان السياسة والقوانين والسلوك العام والعلاقات الاجتماعية؟ أسيظل بعد هذا "دينا"، و"حنيفا" أيضا؟ إننا نشمئز من شرب الخمر ومن لحم الخنزير والزنا واللواط والسحاق والتعامل بالربا بسبب هي الشريعة المغلظ عنها، ونحترم الكبير ونصل الرحم ونغض البصر عن التطلع إلى النساء ونأكل يمينانا ونسبى الله عندئذ ونحمده بعد الفراغ من الطعام لأن ديننا قد حث على ذلك، ونستهجن تبرج المرأة أو تشبُّهها بالرجال أو تشبُّه الرجال بها لأنه غير مقبول في دين محمد، ونستحرم الربا لأنه ممنوع في القرآن والسنة، وقوانيننا في الزواج والطلاق والميراث مثلا مستقاة من الإسلام... وهكذا. فهل يريد المؤلف منا أن نلقى كل هذه الأوامر والنواهي وراء ظهورنا أم ماذا ؟

والآن مع مقترحات أ. الشوباشي: وأول شيء نقف عنده ما قاله بشأن المفعول به، ونصّه: "ولعل من أبرز أسباب تعقيد العربية ووقوع

الغالبية في شَرَك الخطأ هو المفعول به. والمشكلة أن المفعول به في العربية لا يُعرَف من مكانه في الجملة، وإنما من إعرابه، وبالتالي من تشكيكه. وأرى أنه من الأقرب إلى المنطق أن نقول مثلا: "رأيت رجلاً طويلاً يأكلُ خبزاً" بدلا من "رأيت رجلا طويلا يأكل خبزاً". والسبب الوحيد الذي يجعلنا نتمسك بالمفعول به "مَنُونًا" هو أننا ورثناه من نحاة العصور السالفة وأصبح مألوفاً لأذناننا. لكنه من غير المنطقي أن نقبل هذا السبب ونستكين لثقافة الأذن. وإذا قلنا: "رأيت رجلاً طويلاً يأكلُ خبزاً"، فهل يؤدي هذا للقارئ أو المستمع أى التباس في المعنى؟ وبغير مكابرة فإن الغالبية العظمى يخطئون في المفعول به عند الكتابة، كما أنهم لا يفهمون معنى بعض الجمل غير المشكَّلة بسبب ذوبان المفعول به وسط مفردات الجملة حيث إن تركيبة اللغة العربية لا تحدّد له مكانا محسوبا ومعروفا سلفا" (ص ١٧٢).

وتعليقي على هذا هو أن المسألة التي يتكلم عنها الأستاذ غير مقصورة على المفعول به، بل تشمل تقريبا كل الأسماء والأفعال المضارعة أيضا، إذ إن وظائف الكلمات في لغتنا لا تتضح أساسا إلا بضبطها. كما أننى لا أفهم تخصيصه "التنوين" بالذات باعتراضه، والمفعول به وغير المفعول به لا يَنوْن في جميع الحالات كما هو معروف؟ فهذا دليل آخر

على أن المسائل في ذهنه غير واضحة. أما بالنسبة لثقافة الأذن التي يعدّها من عيوب العرب فعليّنا أن نلاحظ أنه يتكلم، لا عن عرب الجزيرة وحدهم، بل عن المصريين والعراقيين والشوام والمغاربة والسودانيين، فهل هؤلاء جميعاً ثقافتهم أذنية مع أن أغلبهم لم يكونوا يوماً أميين يعتمدون في آدابهم ومعارفهم على الأذن والحفظ والمناقلة الشفوية بالمعنى الذي نقصده حين نتكلم عن العرب الأصلاء أيام الجاهلية؟ وحتى بالنسبة للعرب الأصلاء، أيظن المؤلف أنهم ظلوا لا يتطورون حتى بعد أن أصبحوا سادة الدنيا في العلوم والآداب؟ لقد كان الأوربيون إلى قرون قليلة خلّت متخلفين ومتوحشين بطريقة مزرية، وكان العرب الذين لا يعجبون مؤلفنا الآن يسخرون منهم ومن جهلهم وخشونتهم. فهل نظلّ ننتع الأوربيين بأنهم متوحشون أميون إلى أبد الآبدين؟ ثم ما العيب في الاعتماد على الأذن فيما ينبغي الاحتكام إلى الأذن فيه؟ إن التنوين، بلا شك، يضافى على الكلمة موسيقية يجعلها أجمل وأقدر على غزو القلوب، فهل تتخلّى بهذه البساطة عن التنوين، وبخاصة أن آذاننا، كما تقول، قد ألفته؟ إن اقتراحك هذا يذكرني بالتركي الذي اشترى بعض القُلل ووضعها أمام بيته، ثم جلس إليها، وكلما مر أحد السابلة من خلق الله العَلَّابى من أمثالي

ومدّ يده إلى واحدة منها ليبلّ ريقه الناشف أسرع التركي فنهزه قائلاً، وهو يشير إلى قُلّة أخرى بعيدة: "اترك هذه، واشرب من تلك!". طيب! ثلاثة أيمان بالله العظيم يا أستاذ شوباشي ما أنا شارب إلا من القُلّة التي أحبّ، والذي تريد أن تعمله، اعمله!

إن المعيار الذي تتخذه هنا هو أن تؤدي الكلمة المعنى، والسلام. لكن من قال إن هذا معيار سليم في كل الأحوال؟ ترى لماذا جئت لابساً بدلة ورباط رقبة وكنت على "سنّحة عشرة" يوم تسجيل الحلقة التلفازية الخاصة بمناقشة كتابك؟ لقد كان يكفي أن تلبس مثلي قميصاً وسروالاً، بل إنه ليكفي أن يضع الواحد منا خرقة على جسمه إذا أراد الخروج للشارع! لا، بل إنه ليس للخرقة أي داع في أوقات الحر، ويُخرج الواحد منا كما ولدته أمه، على الأقل لتوفر العملة الصعبة التي نشتري بها آلات الغزل والنسيج أو التي نشتري بها الملابس الجاهزة حتى لو كانت من المنتوجات الصينية التي أسعارها في متناول أي "كحيان عدمان"، وأنت سيد العارفين بأن بلادنا في حاجة إلى كل دولار نُدبّقه كي يهبشه بعد ذلك بالملايين أيّ لص من خريجي مدرسة "خذ الفلوس واجرّ" من شاكلة المرأة الحديدية! (المرأة الحديدية من الطبعة المصرية، لا الإنجليزية من أمثال

مسز ثاتشر، التي ظُفِرَها برقبة ألف ممن يُسمَّون بـ "الرجال" من العالم السُّكَّة الذي يدعونه: "العالم الثالث" رغم كراهيتي الشديدة لها ولعنجهيتها ولوقوفها ضد قضايانا). ومرة أخرى أقول: لماذا يا ترى نحرص في الحفلات والمناسبات السعيدة على تزيين المائدة عندما نجلس إلى الطعام، وعلى إضاءة الشموع الخافتة بدلا من الشرا التي اشتريناها بالغالى ودفعنا فيها شيئا وشويات، وعلى تشغيل موسيقى هادئة من النوع الكلاسيك التي يغرم بها من لا يعجبهم من المثقفين "نصف لبة" موسيقانا من عزف خالد الذكر المعلم حسب الله حتى يقال عنهم إن ذوقهم أوربي، ويقوم على تقديم الطعام لنا جرسون أنيق يرتدى "بايونة" في رقبته وينحن في كل مرة بأدب يققع المرارة بل يفلق الحجر، واضعا طَبَقًا وراء طَبَق وعلى راحته تماما (ولماذا العجلة؟ هل سيفوته القطار؟)، ونحن نبتسم له رغم أن عصافير بطوننا لا تكف عن الزقزقة وتود لو نزلت على الطعام "حتتك ببتك" غير مبالية بهذا الذي يسمونه: "الإتيكيت"، لعنة الله عليه؟ ألم يكن يكفي أن يُذلق الطعام على الأرض دَلَقًا، وعلى كل من يريد أن يأكل أن ينبطح على بطنه ويلعقه كما تفعل القطط مثلا؟ ألم نكن سنشبع؟ أم كان الطعام سيقول: لا؟ ولماذا كذلك الرقص والغناء؟ ألا يكفي أننا نمشي

ونتكلم ونصيح؟ ألا بد من الحركات والأصوات الموقّعة؟ ولماذا كل هذه القواعد الكثيرة المعقدة التي يتحكم بها أهل الفيفا في لعبة الكرة؟ لقد كان الناس قديماً يلعبونها كيفما اتفق في كل الواحد منهم الكرة أو خُصِّيتْ غريمه: لا يهم! كُلُّه ماشٍ! وكان الذي ينكسر من اللاعبين أو حتى يموت يروح في ستين ألف داهية دون أن يسأل عنه أحد أو يدفع له دية، فما الذي جعل خبراء الفيفا يحشرون أنوفهم في أمور الكرة ويحرمون الناس من الحرية التي كانوا يتمتعون بها في ممارستها؟ إنَّها الحضارة، كما تعرف، والرغبة عند أهل الذوق الراقى في المتعة يا أستاذ. ولكنك تتجاهل ذلك عند مناقشتك لأمر النحو العربي! وأرجو ألا يقول لي أحد: وهل أوربا غير متحضرة، وليس عندها إعراب؟ فجوابي جاهز، وهو أن هذه مسألة أذواق، وهم لهم ذوقهم، ونحن لنا ذوقنا، مثلما لهم نبيهم، ولنا نبينا، وكل من له نبي يصلي عليه! وفوق ذلك فالإعراب في لغتنا يعطيها مرونة عجيبة في بناء الجملة لا تتوفر في أية لغة أخرى، فترانا نقدِّم ونؤخِّر، ونحذف ونذكِّر حسبما تقتضيه البلاغة. كما أن التشكيل جزء أصيل في الإملاء العربي، على الأقل لإزالة الالتباس كما لا بد أن يكون القراء قد لاحظوا ذلك فيما أكتب، وإن كنت أسرف قليلا في هذا السبيل. أما اللغات

الأوربية التي ترى أنها هي المثال الذي ينبغي أن نحتذيه فهي لغات متيِّسة الحركة كالذي في رقبته خشونة أو غضروف، فهو لا يستطيع أن يتلفت براحته، بل عليه أن يظل ناظرا قدامه، أو كالقطار الذي لا يمكنه إلا أن يجرى فوق القضبان وإلى الأمام فقط آخذا كل شيء في وجهه، لكن ليس على طريقة قطار كَفَر الدوّار الذي دخل في البيوت والدكاكين وحصد من الأرواح ما لا أعرف عدده الآن. أتذكرونه؟ والله إنى لحزينٌ وأخذٌ على خاطري منك كثيرا يا أستاذ شوباشي، فأنت ابن الرجل الذي أمتعنا، ونحن شبانٌ، بأسلوبه العذب الذي يغزو القلوب غزوا، سواء في ذلك مؤلفاته أو مترجماته. لا عليك يا لغتنا العبقريّة الفاتنة! غداً، حين نزيح غُمة التخلف والكسل عن كواهلنا وسواد خزيه عن وجوهنا، يأتيك من يقدر جمالك وأناقتك وسحرك ودلالك وأصالة البيت الذي أنت منه ويدفع فيك المهر الذي تستحقين! صحيح: لم يجدوا في الورد عيباً فقالوا له: يا أحمر الخدين!

ونأتى إلى اقتراح كاتبنا بحذف التأنيث. وأذكر أن د. عبد المنعم تليمة قد دافع، في حلقة التلفاز التي تكررت الإشارة إليها آنفاً، عن هذا الاقتراح قائلاً إننا الآن في عصر يهتم بحقوق المرأة، ولا يقبل أبداً أية تفرقة بينها

وبين الرجل. وعلى هذا فلا بد أن تُعامل كالرجل سواءً بسواء في الضمائر والأسماء والصفات. وقد رددتُ على ذلك بالقول بأن الله جعل كل الأحياء ذكرا وأنثى، ويوم أن يتوصل العلماء إلى جعل البشر جنسا واحداً لا هو ذكر ولا هو أنثى، فعند ذلك سوف تختفى تلقائياً ظاهرة التانيث. وعلينا إذن ان نتظر لنرى ماذا سيتم! أما قبل ذلك فلا أدري سبياً للمناداة بالغائها. ثم أضفتُ أن حقوق المرأة وحرصها على التميز عن الرجل وعدم الخضوع له يقتضى منا أن نُفرد لها بضمائر وصيغ اسمية ووصفية خاصة بها، وإلا كانت مجرد ظل لـ "سى السيد" فنعبّر عنها بما نستعمله له دون تفرقة. ثم إن التانيث موجود مثلاً في اللغة الفرنسية التى يتقنها الكاتب، لا في الضمائر والأسماء والصفات فقط، بل في أدوات التعريف والتشكيك أيضاً، على خلاف ما عندنا، إذ لا تعرف لغتنا إلا أداة تعريف واحدة للمذكر والمؤنث إفراداً وتشبيهاً وجمعاً، أما التشكيك فليس له لدينا أداة. كما أن لتانيث الأسماء والصفات في لغة فولتير قواعد متعددة حسبما هو معروف. لكن البعض قد يعترض بأن المنطق كان يقتضى اتفاق العدد عندنا في التذكير والتانيث مع الاسم المعلوم فنقول: "تسعة نساء، وتسع رجال"، لا العكس. ولا أحب أن أضيع وقتى ووقت القارئ ووقت



المعترض في مناقشة مثل هذا الاعتراض، بل أختصر الكلام اختصاراً وأقول: هذا الذي كان، وهذا الذي حصل، ويستوى من حيث الصعوبة أو السهولة أن نخالف بين العدد والمعدود أو نوافق. المهم أن هناك قاعدة تحكم هذا، وأن الأمر ليس فوضي. وليس من المعقول أن نأتي للغتنا كل فترة فنعبث بها حتى تصبح كالخرقة الممزقة. وبالنسبة فليست هناك لغة في الأرض أهلها راضون عنها تمام الرضا حتى ولا الإنجليزية، التي تعاني من عيوب كثيرة جداً على عكس ما يوحى به كلام الأستاذ الكاتب. وكما أكرر دائماً، فالعبرة بالتكرار والتعود، وكل صعب لا بد أن يذلّ ويُسلس قيادته لمن يروّضه بالاهتمام والجِدِّ والحرص على الإتقان.

وقد أثّرت مسألة إطلاق كلمة "أستاذ" بصفتها المذكّرة هذه على بعض دكتورات الجامعة، ودافع الدكتور تليمة عن هذا الصنيع. لكنني أرى أنه مجرد تقليد ممسوخ للغة جون بول، التي لا يصح اتخاذها هي أو غيرها مثلاً أعلى للغتنا الدقيقة الأنيقة المصفاة من كل أثر للخشونة الموجودة في الإنجليزية أو غير الإنجليزية. إن هذا يذكرني بما صنعه بنو إسرائيل فور نجاحهم من بطش فرعون، الذي رآوه بأم أعينهم يفرق مع جنوده ومَلَكه لكنهم لم يتعظوا، إذ ما إن أتوا في سيناء على قوم يعكفون على أصنام لهم

حتى صاحوا بنبیهم قائلین: "یا موسى، اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة. قال: إنكم قوم تجهلون\* إن هؤلاء متبرّ ما هم فيه، وباطل ما كانوا يعملون" (الأعراف/ ١٣٩ — ١٤٠). كذلك أذكر أنه كانت لجيراننا بنت حلوة جدًا حباها الله شعرًا وحفًا ناعمًا جميلًا يصل إلى خصرها ويضفي عليها مزيدًا من الفتنة والبهاء، لكنها بنزقها وقلة عقلها أبت إلا أن تقصّه "الاجرسون" تقليدا لصديقة لها شعرها شائك كالليفة الجديدة ظلت ترنّ عليها وتغريها بذلك غيرةً من شعرها الفاتن الجميل. وعبثا حاولت أمها أن تبصرها بسوء رأيها، فقد كانت، كما قلت، قليلة العقل عنيدة. ثم رأيناها بعد أن نالت مرادها وقد فقدت شيئا كثيرا من حلاوتها وفتنتها. ولكنّ على من تقرأ مزاميرك يا داود؟

ومن بين ما أخذه المؤلف على الفصحى وجود التثنية فيها. ولست في الحق أدري كيف يمكن أن تكون هذه السمة معابة تؤخذ على لغة القرآن، إذ هي بالعكس دليل على الدقة، فبدلا من أن تتعامل مع ما يزيد على واحد نفس المعاملة نراها تفرق بين الاثنين وما هو أكبر من ذلك. والأستاذ المؤلف يتخذ من اللغات الأوربية هنا أيضا معيارا يعاير به لغتنا، ناسيا أن لكل لسان شخصيته وأوضاعه، فضلا عن أن الحياة ذاتها قد

أفردت المثنى بوضع خاص، فالكون كله قائم على التقابلات الثنائية: فاليمين يقابله الشمال، والأعلى يقابله الأسفل، والأمام يقابله الورا، والذكر تقابله الأنثى، والسماء تقابلها الأرض، والجنة تقابلها النار، والماضى يقابله المستقبل، والبحر يقابله البر... وهكذا. وفي الإنجليزية ما زالت هناك كلمة "both: كلاهما" في مقابل "all: كلهم"، وكذلك عبارة "one another: كلاهما الآخر" في مقابل "each other: كل منهم الآخر"، وهو أمر له دلالة التي لا ينبغي أن تفوتنا. سيقول الأستاذ: لكن الطلبة يضيقون بهذا، فأقول له: ليس للكسالى الحق في فرض كسلهم على الحياة. إن سقوط الهمة والكسل مسؤولان عن الكوارث المتلاحقة التي تنزل على رؤوسنا منذ قرون، ولا تكاد تترك لنا فرصة لتنفس ونقشب على وجه الدنيا. كفانا بلادة وجمودا ولنكن، ولو مرة واحدة، كأجدادنا الذين فتحوا العالم، وليس في أيديهم غير هذه اللغة التي لا تعجب البعض والكتاب الذي نزل بها، والذي لا يستطيع أقوام أن يناموا ملء أعينهم رغم كل ما في أيديهم من سلطان وثروة وقوة وجبروت ما دام هناك من يقرؤه ويؤمن به! أما مبدأ "كله عند العرب صابون" فلا محل له من الإعراب. وهنا ينبغي أن نشير إلى ما جاء في نهاية

كلام المؤلف حول هذه القضية من أن اللهجات العامية قد تخلصت من المثنى تلقائياً وأصبح الاثنان جمعا كما يقتضى المنطق (ص ١٧٤). فأما أن المنطق يقتضى هذا فغير صحيح كما سبق أن وضحنا، وأما أن العاميات قد تخلصت من المثنى، فإن كان المقصود أنها تخلصت منه تماماً فهذا لم يحدث، إذ ما زلنا نقول فى لغتنا اليومية: ولدين وبتين وكتابين وورقتين وأستاذين ومدرّستين... إلخ، لكنه صحيح فى مجال الضمائر رغم ذلك.

وقد حاول مقدم البرنامج التلفازى الذى نوقش فيه كتاب الأستاذ المؤلف أن يسوِّغ ما نادى به من معاملة المثنى معاملة الجمع، فاستشهد بقوله تعالى: "وداودَ وسليمانَ إذ يحْكُمانِ فى الحِثِّ إذ نَفَسَتْ فيه غنْمُ القومِ، وكنا لحكمهم شاهدين" (الأنبياء/ ٧٨)، ويقول أمير الشعراء مخاطباً النبى عليه السلام:

فإذا رَحِمْتَ فَأَنْتَ أُمٌّ أَوْ أَبٌ هذان فى الدنيا هما الرُّحَماءُ

حيث استعمل القرآن ضمير الجمع فى كلمة: "حكمهم" لداود وسليمان، وهما اثنان فقط، واستخدم شوقى صيغة الجمع: "الرحماء" فى وصف الوالدين، وهما اثنان أيضاً فقط. وكان جوابى أن ذلك ليس بلازماً، فكلية "حكمهم" يدخل فيها أيضاً "القوم" الذين احتكموا إلى النبيين

الكريمين، ومن ثم يكون ضمير الجمع عائدا على أكثر من اثنين: داود وسليمان وأولئك القوم. كما أن في بيت تشوقى غرضا بلاغيا مؤداه أن رحمة الأبوين هي الرحمة الحقيقية أو تعدل جميع الرحمة الموجودة في العالم، فكأنهما كل الرحماء في الدنيا. أى أن الكلام هنا على الجاز لا على الحقيقة. ويمكن أن أزيد أيضا بعض ما أورده المرحوم محمد خليفة التونسي في كتابه "أضواء على لغتنا السميحة" (كتاب العربى/ ١٥ أكتوبر ١٩٨٥ م/ ٣٢-٣٥، ١٧٨-١٨٠) من شواهد تبدو وكأنها تجرى عكس ما أقول، فقد أورد مثلا قوله عز من قائل: "هذان خصمان اختصموا في ربهم: فالذين كفروا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ... \* إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ..." (الحج/ ١٩-٢٣)، حيث قال سبحانه: "خَصِمَانِ اخْتَصَمُوا" واصفاً المثنى بالجمع. والرد هو أن الخصمين هنا ليسا فردين كما يُظَنُّ، بل جماعتين: هما جماعة الكافرين، وجماعة المؤمنين كما هو واضح من بقية الكلام. وبالمثل احتج، رحمه الله، بالآية الكريمة التالية التى تتحدث عن قصة الخلق والحوار الذى دار بين الله سبحانه وبين السماء والأرض حينذاك قائلة: "ثم استوى إلى السماء وهى دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ: ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا. قالتا: أتينا

طائِعِينَ" (فُصِّلَتْ/ ١١)، حيث قال تعالى عن السماء والأرض: "طائِعِينَ" لا "طائِعَتِينَ". لكن توجيه ذلك سهل غاية السهولة، فالمقصود السماء والأرض وسكاهما أيضا لا السماء والأرض فحسب، ولذلك استخدمت الآية الكريمة جمع المذكر السالم الذى لا يستخدم لغير العاقل إلا فى غرض بلاغى كما هو الحال هنا. ومما يعضد هذا أن القرآن الكريم قد يصف الاسم المفرد من هذا النوع أو يخبر عنه بصيغة الجمع أيضا مما يدل على أن المسألة ليست من باب معاملة المثنى معاملة الجمع. وهذه بعض الشواهد على ما أقول: "فإن حزب الله هم الغالبون" (المائدة/ ٥٦)، "ألا إن حزب الله هم المفلحون" (المجادلة/ ٢٢)، "وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب" (ص/ ٢١)، "وددت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم" (آل عمران/ ٦٩)، "ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك" (النساء/ ١٠٢). والذى أريد أن أقوله من خلال هذا التوضيح أن القواعد النحوية ينبغي أن تكون مُطَرَّدة ما أمكن حتى لا يرتبك من يستعملونها.

ومما يعيب به المؤلف اللغة الفصحى أيضا الجملة الفعلية. وهو متأثر فى هذا باللغات الأوربية التى لا تعرف إلا الجملة الاسمية، مما يذكرنى بأيام الفقر والعزوبة حين كان طعمنا فى غالب الأحيان شطائر الفول والفلافل

ومبا إليها. فهل هناك عاقل يعرف ما يُصلح صحته ويريد أن يستمتع بأذواق الطعام المختلفة التي أنعم الله بها على عباده يستمر على هذه الخطوة القشفة حتى بعد أن تتيسر أحواله وتتسع قدراته المادية؟ إن وجود لونين من الجُمْل في "لغتتنا الجميلة"، على حد وصف فاروق شوشة لها، هو نعمة من النعم العظيمة، إذ يتيح لنا أن ننوع أساليبنا على ما نحب بدلا من أن نسير دائما على وتيرة واحدة كما سبق القول عندما أشرت إلى المرونة التي تتمتع بها الجملة العربية الفصيحة، فهل نرفض هذه النعمة لأن الأوروبيين محرومون منها في لغاتهم، ونفعل كما فعل بنو إسرائيل حين أرادوا أن يكون لهم إله آخر مع الله كما للوثنيين الذين مروا بهم في سيناء آلهة، أو كالبنات صاحبة الشعر الحريري الطويل الجميل التي لم تهدأ إلا بعد أن قصّته تقليدا أعمى لما فعلته صديقتها بشعرها الليفي الأكرت؟ إنني أربأ بأنفسنا أن نكون كرؤساء القبائل الهمجية في غابات أفريقيا أيام المهجمة الأوروبية المسعورة على تلك القارة حينما كان طلائع الاستعمار من شياطين الإنس يضحكون على أولئك الزعماء فيغروهم بقطع الزجاج الملونة التي لا قيمة لها على الإطلاق في مقابل الألماس والذهب وغيرهما من المعادن والأحجار الكريمة. لكننا، والحمد لله، لسنا من التخلف والانخداع

بهذه البهرجات الزائفة الرخيصة والفرح بما وإيثارها على الألباس والياقوت واللؤلؤ إلى هذا الحد! والأستاذ الشوباشى ينتمى إلى بيت علم وأدب، وكان أبوه من كبار الأدباء والنقاد والمترجمين، فكيف يقع في هذا الشُّرك؟ إننا جميعاً نريد للغتنا انتعاشاً وازدهاراً كما كان حالها أيام مجدها العظيم، لكن السبيل الذى ينتهجه كاتبنا ليس هو السبيل المؤدى إلى هذه الغاية.

وثُمَّ نقطة لا بد من توضيحها في هذا السياق، وهى أن الفصحى، رغم كل شيء، قد نهضت نهوضاً عظيماً ورائعاً من عثارها الذى كانت مرتكسة فيه زمناً في العهد العثماني حيث كانت الأمية والجهل ضارين بأطنابهما في أقطار العرب، والدليل على ما أقول أن الأمية قد انحسرت إلى حد ملموس وانتشر التعليم، وأصبح عندنا الآن ذخيرة من الأساليب قد يصعب أن نعثر على أشباهها حتى في أيام الازدهار الثقافي للأمة العربية أيام العباسيين. وقد سبق أن أعطيت بعض الأمثلة على أصحاب الأساليب الفخمة في عصرنا بما يغني عن إعادة القول فيها هنا. لكننا، مع ذلك، نريد لهذه اللغة الكريمة أن تتعش وتزدهر أكثر وأكثر، وأن يشعر الناس جميعاً بحلاوتها وروعيتها وفتنتها ويتذوقوا النعمة التي أنعم بها المولى عليهم في شخصتها، وبخاصة أن التفوق العام فيها مرتبط بالتفوق العلمي والأدبي



والثقافي مما نحتاجه للخروج من تخلفنا الحالي الذي أوردنا مورد العجز والذل وأطمع، فينا من يساوى ومن لا يساوى من دول العالم، فلم يعد أحد يحترمنا أو يقيم لنا وزنا حتى إن الفيليين وهندوراس ولا أدري مَنْ أيضاً من الدول التي لا يعرف أحد مكانها على الخريطة تشترك في احتلال العراق مساندة للأمريكان، وحتى إن أحداً في الأمم المتحدة لا يبالي بما يحدث لإخواننا الفلسطينيين الأبطال على يد عصابات بني صهيون المدعومين مالياً وعسكرياً وسياسياً من أمريكا والغرب كله من مجازر لا تتوقف يوماً ولو ساعةً من فهار، على حين أنه لو تألم شخص واحد من الأقليات في بلد إسلامي أو عربي لوجع في ظفر خنصره الشمال من قدمه الحافية الجرباء لقام مجلس الأمن في الأمم المتحدة بميله وهيلمانه يدعو إلى استقلال صاحب الظفر بدولة قائمة برأسها ومعاقبة العرب والمسلمين جميعاً بسبب ما حدث لظفره! وبالمناسبة فالإنجليزية والفرنسية مثلاً تقدّمان الفعل، في بعض الأحيان، على الاسم بما يشبه الجملة الفعلية عندنا، وتسميان هذا اللون من التركيب: "inversion"، وإن كانت الإنجليزية تتوسع فيه أكثر من الفرنسية.

ويعيب الأستاذ المؤلف كذلك لسان العرب بما يسميه "النقص

الغريب في جزوف العلة" (ص ١٦٨). يقصد أننا لانعرف إلا الفتحة والكسرة والضمة الصافية ومدّاتها، بخلاف الفرنسية مثلا، التي تعرف حروف علة أخرى بالإضافة إلى ما تعرفه العربية، من مثل "e, u, y, ai, eu, eau, o"، إلى جانب الـ "accent"، الذي يوضع على بعض هذه الحروف بأشكاله الثلاثة المعروفة. وهو عيب موهوم، إذ من ذا الذي يشعر أن ذلك يقيد في التعبير عما يشاء؟ ثم إن هذه الحركات كثيرا ما تختلط وتتداخل من كلمة لأخرى في لغة الإنجليز، بل أحيانا ما يكون وجودها فيها صوريا حتى لينبغي عليك أن تحفظ نطق كل كلمة من كلماتها تقريبا بالسمع رغم ذلك، إذ الكتابة في كثير جدا من الحالات شيء، والنطق شيء آخر. كذلك فالإنجليزية والفرنسية ينقصهما من حروف لغتنا "الثاء والحاء والعين والغين والقاف والهاء"، ومع ذلك فإننا لا نشغل أنفسنا كثيرا بمثل هذا الأمر ما دام أصحابهما لا يشعرون بأنه يشكل عبئا عليهم في الإفصاح عما يريدون. وما دمنا قد دخلنا في هذا الموضوع، فما رأى كاتبنا في وجود الـ "ph" مع الـ "f" في هاتين اللغتين؟ هل يرى له أى لزوم؟ وهل هو راض عن تبدل طريقة النطق للـ "d" والـ "t" والـ "s" من موضع إلى موضع ما بين ترقيق وتغليظ،

فضلا عن عدم نطق بعض الحروف المكتوبة؟ وهل يرى داعيا لوجود  
 تركيبة الـ "th" في الفرنسية ما دامت الـ "t" وحدها تكفى؟ وهذا  
 علاوة على اختلاف نطق الـ "c" والـ "g" فيها وفي الإنجليزية  
 حسب الحرف الذى يأتى بعدهما... إلخ. وبالمناسبة فقد أخطأ المؤلف هنا  
 حين أراد أن يعلل السبب في تسمية اللغة العربية بـ "لغة الضاد"، إذ  
 حسب أن ذلك راجع إلى أنها هي اللغة الوحيدة في العالم التى تفخّم  
 "الدال" وتضخّمها فتقلبها "ضادا" (ص ١٤٩). فأما أنها، على الأقل في  
 نطاق علمنا، هي اللغة الوحيدة في العالم التى تعرف نطق "الضاد" فهذا  
 صحيح، لكن بمعنى غير المعنى الذى شرحه سيادته، لأن "الضاد"، كما جاء  
 في كلامه، ليست هي "الضاد" العربية الأصيلة بل "الضاد" حسبما ننطقها  
 هنا في مصر، وهذه موجودة في الفرنسية والإنجليزية متمثلة في تفخيم  
 حرف الـ "d" في كثير من الكلمات على ما هو معلوم، مثل "dogue"  
 في الأولى، و"double" في الثانية. أما "الضاد" العربية فهى شيء بين  
 "الضاد" المصرية و"الطاء".

كذلك يعيب الأستاذ شريف لغة العرب بأن غالبية الكلمات والأفعال  
 فيها تتكون من حروف ساكنة فقط، على عكس كل لغات العالم

الحديثة (ص ١٦٩)، وهى دعوى غير صحيحة، إذ الغلبة فيها إنما هى للجروف المتحركة لا الساكنة كما يعرف كل من له أدق إلمام بلغتنا. أما إن كان يقصد الإملاء وأنا عادة ما أهمل تشكيل الكلمات فهذا شىء آخر لا علاقة له بما نحن فيه. ولكن لا بد مع ذلك من المسارعة إلى القول بأن السياق والتعود والإلمام بقواعد اللغة يعوّض عن هذا إلى حد كبير، علاوة على أن كثيرا من المؤلفين يحرصون على تشكيل ما يروّون أنه بحاجة لذلك. ثم إن القارئ فى كثير من الأحيان لا يحتاج إلى التشكيل على الإطلاق، وهاهو ذا كتاب المؤلف بين أيدي القراء، وهو غير مشكّل، فهل وجد أحدهم صعوبة فى قراءة أية كلمة فيه؟ لقد أورد سيادته، مثالا على الالتباس الذى يجده القارئ فى هذه الحالة، كلمة "قتلت" إذا لم يتم تشكيلها، لأنها يمكن أن تُنطَق بعَشْر طُرُق. وأنا معه فى أن الكلمة المذكورة تقبل النطق فعلا بكل هذه الصُور، لكنّ على المستوى النظرى فقط، أما على أرض الواقع العملى فالسياق والتعود والخبرة والإلمام بالقواعد يسهّل الأمر، كما قلت، إلى حد كبير، بل يعوّض كذلك عن غياب التشكيل تمام التعويض فى كثير من الأحيان، وإلا فكيف كان يقرأ الناس ما يقرأون كل لحظة من همار منذ أن انتشرت الكتابة فى حياة العرب

حتى هذه الساعة؟ أكانوا يتهتهون قليلا ثم يتركون ما يقرأونه وينصرفون عنه إلى شيء آخر أم ماذا؟ ثم إنه إذا كانت الكلمة المذكورة تحتل عشر طرق في النطق فإن معظم الكلمات لا تحتل إلا طريقة أو اثنتين لا غير كما هو معروف. وعلى أية حال فإن التشكيل، كما وضّحتُ، يُعَدُّ ركنا أساسيا في إملائنا، يَبْدُ أن عبقرية لغة القرآن وانتظامها الشديد في قواعد صرفها ونحوها يغنيان عن هذا التشكيل في كثير جدا جدا جدا من الحالات، وبخاصة إذا كان القراء على شاكلي أنا وأمثالي ممن يعرفون تلك القواعد جيدا. هذا، ولا يفوتني أن أنبه إلى الخطأ الذي وقع فيه الكاتب حين قال إن "غالبية الكلمات والأفعال في العربية تتكون من حروف ساكنة فقط"، إذ جعل "الكلمات" قسيمة لـ "الأفعال"، وهذا غير صحيح، فالأفعال قسم من أقسام "الكلمة". وعلى هذا فالصواب أن نقول: "الأسماء والأفعال والحروف"، أو أن نكتفى بذكر "الكلمات" فحسب، لأن الكلمات في لغتنا تنقسم إلى "اسم وفعل وحرف" حسبما هو معروف.

وقد نال المترادفات أيضا من هجوم الكاتب وزرأته نصيبٌ كافٍ، فأخذ يتألم من اتساع هذه الظاهرة في لغتنا داعيا إلى الاكتفاء منها

بالقليل. وأنا في الواقع لا أدري كيف يمكن أن تكون هذه السَّمة مَسْبِيَّةً في لغة القرآن. ترى هل يمكن أن نجىء إلى رجل شديد الثراء بجِدَّة وعمله ودأبه وذكائه وحيويته وطموحه فنقول له موبَّخين: لماذا كل هذا الغنى والنعمة التي أنت فيها؟ لم لا تكون فقيراً؟ أم هل يمكن أن نذهب إلى إحدى الجميلات الفاتنات ونبكتها قائلين: لماذا كل هذا الجمال الذي وهبَكيه الله؟ أليس الأفضل أن تكوني قبيحة؟ وبالنسبة للمترادفات، فليقل لنا الأستاذ الفاضل كيف يمكن أن نتخلص من هذا الفائض اللغوي؟ هل نعمل له محرقة؟ لكن أيضمن ألا يطلع علينا أحد المستشرقين فيتهم العرب والمسلمين بالتخلف والوحشية وحرق الكتب، وبخاصة أننا لم نستطع بعد أن نخلص من التهمة الظالمة السخيفة بحرق مكتبة الإسكندرية رغم تفنيد عدد من الكتاب الغرب أنفسهم لها بأدلة علمية لا يخرّ منها الماء؟ وهبْ! أننا دمرنا الكتب، ولا أدري كيف، لأن هذه المترادفات ليست موجودة في مكان واحد بحيث يمكن أن نرسل طائرة فتدك المكان فوق رؤوس هذه الكلمات اللعينة التي هي علة كل تخلفنا وذلنا، وترجمنا إلى الأبد منها وما جلبته لنا من عار وشنار، بالضبط مثلما فعلت أمريكا مع العراقيين الذين كانوا متحصنين في ملحج العامرية ببغداد أيام حرب "عاصفة الصحراء"،

فما الذى سنستفيد منه هذا؟ إن تلك الألفاظ موجودة في بطون القواميس ولا تسبب لنا أية مشكلة، فلماذا نشغل أنفسنا بها؟ أم مجرد الرغبة في إثارة عاصفة في فئحان؟ أما من يريد أن يستعملها فلننا نملك له شيئاً! أم ترى المؤلف الكريم يقترح إصدار تشريع بإعدامه أو سجنه مثلاً؟ لكن المشكلة أن مثل هذا القانون سوف يكون فرصة رائعة لأنصار حقوق الإنسان في الغرب كي يؤولوا علينا أمريكا (دستور يا أسيادى الأمريكان، دستور! اللهم اجعل كلامى خفيفاً على الأسياد!) فتحملنا رغم أنهم يكرهون لغتنا ويعملون على القضاء عليها، وذلك على طريقتهم الشيطانية في الإفادة من الشيء ونقيضه، كما فعلوا مع صدام حسين وبه، إذ استفادوا منه في ضرب إيران، وشجعوه على غزو الكويت، ثم انقلبوا عليه واهتموه بالعدوان على هذين البلدين وبجيازة الأسلحة النووية التى اشترى معادها من أوروبا تحت سمعهم وبصرهم وهم ساكتون ما دامت النتيجة هى نزع ثروات العراق إلى بلاد الغرب!

إن كثرة المترادفات لى دليل على الدقة الهائلة التى تتمتع بها لغة العرب، فتراها تسمى الشيء أسماء مختلفة حسب الزاوية التى تنظر منها إليها، فالسيف مثلاً تسمى: "هندوانية" للدلالة على أنها صناعة هندية،

وكانت الهند وقتها مشهورة بصناعة السيوف، فهذه التسمية لون من الافتخار، كما يقول الواحد منا الآن إن حاسوبه مثلا صناعة يابانية لا صينية. وقد تسمى أيضا بـ "البيض" للإشارة إلى ناصع لونها، وقد يسمى الواحد منها: "جرّازا" للإيجاء بمقدرته الفائقة في القطع من ضربة واحدة لا غير... وهكذا. على أن هناك سببا ثانيا وراء كثرة المترادفات عندنا، ألا وهو اختلاف القبائل قبل الإسلام في تسمية بعض الأشياء، مثلما نقول في مصر الآن: "كرب"، على حين يقول الشام: "ملفوف"، ومثلما نقول: "طماطم"، ويقولون هم: "بندورة"... إلخ، علاوة على أن كثيرا من هذه المترادفات ليست في الحقيقة تسميات مختلفة للشيء بل تُعوّثا له استعمالها الشعراء والكتاب دون موصوفاتها فظن المتعجلون أنها إسراف في الترادف. لكن ذلك كله لا يمثل لنا أية مشكلة، فهذه التسميات الكثيرة لا تتعدى بطون المعاجم كما قلنا، أما عند الكتابة فلا أحد منا يستطيع أن يتذكر عادةً إلا اسمين أو ثلاثة أو أربعة مثلا لأي معنى كان في يوم من الأيام يحظى بوفرة في التسميات. ويظل الباقي هناك مخزونا إستراتيجيا نستعمله عند اللزوم: إما لمسمّاه الأول، وإما في معنى مجازي جديد، وإما لشيء مستحدث لم يكن للعرب به عهد من قبل... إلخ.



ويشيد د. عثمان أمين بهذه الخصيصة من خصائص لغة الضاد قائلا  
 إنها تتفوق بما على لغات العالم، إذ لا توجد في أى من هذه اللغات مثل  
 تلك الوفرة من الألفاظ الدالة على الشيء منظورا إليه في مختلف درجاته  
 وأحواله، ومتفاوت صورته وألوانه. ثم ينقل عن حسن الشريف قوله، على  
 سبيل التمثيل، إن "الظمأ والصّدَى والأَوَام والهَيَام كلمات تدل على  
 العطش، إلا أن كلا منها يصور درجة من درجاته: فأنت تعطش إذا  
 أحسست بحاجة إلى الماء، ثم يشتد بك العطش فتظمأ، ثم يشتد بك الظمأ  
 فتَصْدَى، ويشتد بك الصّدَى فتزُوم، ويشتد بك الأَوَام فتَهيم... وواضح  
 أن هذه الخاصية العربية... تغنينا باللفظ الواحد عن عبارة مطوّلة تحدد المعنى  
 المقصود، وتجعلنا نقول عن المشرف على الموت عطشا إنه "هائم"، حين لا  
 يستطيع الفرنسي مثلا أن يودى هذا المعنى إلا في ثلاث كلمات، إذ يقول  
 : "ماتت من الظمأ: mourant de soif"، أو في سبع كلمات ليكون  
 المعنى أوضح فيقول: "على وشك أن يموت من الظمأ: sur le point  
 de mourir de soif"، ثم يعقب على هذا النقل قائلا إن "هذا المثال  
 المتقدم يشير إلى خصيصة عربية أخرى لا نكاد نجد لها نظيرا في غيرها من  
 اللغات التي نعرفها، وهى الإيجاز فى اللفظ والتركيز فى المعنى دون الإخلال

بما درجت عليه من الوضوح والتميز" (فلسفة اللغة العربية/ المكتبة الثقافية/ أول نوفمبر ١٩٦٥م/ ٥٨ - ٥٩). كذلك أثنى والد المؤلف على هذه الخصيصة في اللغة الفصحى قائلا إن أية لغة غير العربية لا تعرف إلا كلمة واحدة للتعبير عن المشي للرجل والمرأة على السواء، أما لغتنا فتقول عن المرأة: "تأوّد" و"تبختر" و"ترْفُل" وغير ذلك من الكلمات التي تصور تأنق المرأة في مشيتها وتنطق بما كان لذلك من أهمية (العرب والحضارة الأوربية/ المكتبة الثقافية/ ١٥ أغسطس ١٩٦١م/ ٦٢). ومرة أخرى نقول: لم يجدوا في الورد عيبا، فقالوا له: يا أحمر الخدين! على كل حال لا ينبغي أن تضيق منا الصدور، فمصرها أن تروق وتحلوا والمهم أن يفيق "أولاد الإياه" العرب من هذا الخمار الذي هم فيه، وعندئذٍ لا قبلُذٍ، لن نسمع مثل هذه التصايفات التي تحاول التشكيك في كل شيء من تراثنا العظيم! لكن متى؟ "تلك هي المسألة" كما يقول سيدنا شكسبير! أما الآن فواضح أنه "لا حياة لمن تنادي!"

وهذا نكون قد انتهينا من مناقشة فكرة المؤلف الرئيسية بتفصيلاتها المختلفة، وتبقى بعض النقاط الفرعية التي تحتاج إلى شيء من التريث إزاءها. ومن ذلك قوله إن اللغة العربية "هي اللغة الوحيدة في العالم التي لم

تستغیر قواعدها الأساسية منذ ١٥٠٠ سنة كاملة. قد يرى البعض في ذلك رسوخًا واستمراريةً ودليلاً على رصانة اللغة، لكنني أرى فيه جمودًا وتحجرًا ينعكس سلبياً على العقل العربي" (ص ١٣). وهذا كلام لا نوافق المؤلف عليه بعدما بينّا كيف أن كل ما قاله عن عيوب هذه اللغة هو مجرد دعاوى قائمة على الشبهات المتعجلة، ولا أزيد. والواقع أن من الصعب الاقتناع بأن طول عمر العربية دليل على التحجر، وبخاصة بعدما رأينا أنها لم تكف يوماً عن التطور كما وضّحتُ في هذا البحث، وأن التأليف بها في شتى المجالات والعلوم والفنون مستمر على الدوام. إن طول عمر لغة القرآن إنما هو برهان جليّ على أصالتها التي لم تستطع لغة أخرى أن تجاريها فيها. ولقد دفعت هذه الأصالة العجيبة كبار الأدباء العرب النصارى المتكئين من لغتهم والغيورين عليها والعارفين بفضلها وعبقريتها إلى الإشادة بذلك السر الذي حمى تلك اللغة من الاندثار أو على الأقل من التغير الجذري الذي من شأنه أن يقيم حاجزاً صلباً ما بين ماضيها وحاضرها، أو من التحلل وإفساح المجال للهجاءها المختلفة مثلما حدث لغيرها من اللغات، ولم يمنعهم عدم إيمانهم بدين محمد من القول بأن ذلك السر هو القرآن. ومن هؤلاء سليمان البستاني مترجم الإلياذة الذي كان يعرف عدداً من

اللغات الأجنبية، ومنها اليونانية القديمة (البازة هوميروس/ دار إحياء التراث العربي/ بيروت/ ١/ ١١٣ - ١١٥)، وجرجى زيدان (مختارات جرجى زيدان/ مطبعة الهلال/ القاهرة/ ١٩٣٧/ ١٨٧ - ١٨٩). وإلى القرآن الكريم أيضا تعزو مـيّ زيادة النصرانية اللبنانية المتمصرة فصاحة المسلمين العرب واستقامة لفظهم وجمال نطقهم وفخامة أسلوب الكاتبيين منهم (باحثة البادية وعائشة التيمورية/ كتاب الهلال/ يونيه ١٩٩٩م/ ٦٠). وبالنسبة لقد أحدث الأتراك في لغتهم تغييرات كثيرة وعنيفة عامدين متعمدين كي يتعدوا عن مدار العربية ظنا منهم أن ذلك هو المفتاح الذي سيلحقهم بأوربا في التفوق والتحضر والتقدم الاقتصادي والعسكري، بيد أن تركيا ما زالت دولة من دول العالم الثالث، وتعاني من كل ما تعاني منه دول ذلك العالم، ولم يشفع لها ما فعلته بلغتها أو بدينها في هذا السبيل بشيء! بل إن أوربا لا تزال تقف منها موقف المتربص الكاره، وتأبى عليها أن تلتحق بالاتحاد الأوربي لا لشيء إلا أنها دولة مسلمة! بعد كل الذي فعلته؟ إى وربى بعد كل الذي فعلته! فما رأى مؤلفنا الفاضل؟ وعلى الناحية الأخرى هاهى ذى دول السنمور الآسيوية قد أحرزت في الفترة الأخيرة نهضة اقتصادية عظيمة من

دون أن تحدث في لغاتها أو دينها هذا الذي فعلته تركيا الكمالية! فما رأى مؤلفنا الفاضل في هذه أيضا؟

كذلك يقول سيادته إن "ظاهرة رفض المساس باللغة العربية هي جزء من ظاهرة أعم أصبحت مسيطرة على المجتمعات العربية، فقد استشرى منذ الثلث الأخير من القرن العشرين تيار جارف يعتبر كل بدعة مكروهة، ويرى في أى فكر حرّ متطور محاولةً شيطانية لتقليد الغرب وتبذلاً للدين والثقافة العربية الأصيلة" (ص ٥٨). ويوسفنى أننى لا أستطيع أن أتفق معه في هذا التعليل، وإلا فأين مكان والده والشدياق وبطرس وسليمان البستاني وناصيف وإبراهيم اليازجى وجرجى زيدان وخليل مطران وابن باديس وشكيب أرسلان ومحمد كرد على والبشير الإبراهيمى والطاهر والفاضل ابني عاشور والرافعى والعقاد وطه حسين والزيات وعثمان أمين وحسن الشريف ومحمد محمد حسين ومحمود شاكر ونبت الشاطئ وشوقى ضيف ومحمد شوقى أمين ومحمد خليفة التونسي وعلى الطنطاوى ومحمد الغزالى وحسين نصار ونجيب محفوظ وعبد الصبور شاهين وفاروق شوشة وغيرهم من الكتاب والأدباء العرب الفطاحل من هذه النزعة، وهم قد جاؤوا قبل ظهورها بزمان طويل، ولهم رؤية للدين والحياة تختلف

عن رؤية أصحابها؟ وأين مكان واحد مثلى لا تربطه أية رابطة بالجماعات الدينية التي يرمى المؤلف بكلامه ناحيتها، وأرى أنهم كثيراً ما يسيئون لدين محمد عليه السلام، وإن ظنوا بحسن نية أنهم يحسنون صنعا، إذ هم يحبون هذا الدين العظيم حباً جمّاً، لكنهم قد يخطئون السبيل لخدمته؟ بل أين منهم أيضاً مكان أحمد لطفي السيد، الذي كان، رغم كل ما هو معروف عنه من أفكار لا تعجب كثيراً منا، يحمل على العامية حملة شعواء واسماً إياها بأنها ممسوخة الألفاظ، منحطة التراكيب، ملحونة الإعراب؟ (المنتخبات/ طبعة المقتطف / ١٩٤٥م / ١٢٣). ثم من قال إن الجماعات الدينية المشار إليها تهتم أصلاً بمسألة كهذه؟ إن كل ما تهتم به لا يكاد يخرج عن قضية الحلال والحرام بالمعنى الضيق لهذين المفهومين، أما اللغة فخارج دائرة اهتمام أفرادها بوجه عام. إن المسألة في وضعها الصحيح هي أن سيادته يتبنى قضية خاسرة، فضلاً على أنه لم يستطع أن يربحنا، ولو بالباطل، إلى صفه. لكنه للأسف لا يريد أن يعترف بهذا، فما العمل؟ نحن مقتنعون مثله، بل أشد منه، أننا متخلفون، وأن الغرب أقوى منا، وأن لديه أشياء كثيرة في العلوم والصناعات والفنون والنظام والتخطيط والتنسيق والتعاون والجُلْد على العمل والصبر على مشقات الحياة... إلخ لا بد لنا من

الاستفادة منها والتلمذ عليه فيها، وبخاصة أن كثيرا من القيم التي عنده هي مما يدعو إليه الإسلام أيضا، مع تفوقها في الإسلام وخلوها من الشوائب والأضرار التي تمتاز بها لديه. لكن هناك شيئين لا نفكر في التخلي عنهما ولا في مطاوعة الغرب في التفريط فيهما أبدا: اللغة والدين! فإن وافقنا الكاتب على هذا فنحن أحباب، وإلا فهو في طريق، ونحن في طريق، ومعنا والده أو بالأحرى روح والده ترفرف علينا وتشجعنا على مخالفة ابنه وتنكر عليه هذا الموقف تمام الإنكار!

وزراية من الكاتب أيضا على اللغة العربية يزعم أن عشق العرب الأول يتمثل في التلاعب بالكلمات. يريد أن يقول إنهم لم يكونوا ينظرون إلى اللغة على أنها وسيلة للتفاهم بل للعبث وإضاعة الوقت جريا وراء سحجة أو جناس أو طباق، أو لتحجير رسائل تقرأ في ذات الوقت من اليمين للشمال وبالعكس... إلى غير ذلك من ألوان الزينات الشكلية التي يؤكد أنها لا تفيد في شيء. وهو يشير في هذا المقام إلى ما كان يفعله واصل بن عطاء، الخطيب والمفكر المعتزلي المشهور الذي كان في لسانه لثغة، فكان يتجنبها في خطبه مستبدلا كل كلمة فيها "راء" بكلمة أخرى ترادفها تخلو من هذا الحرف (ص ٨٤-٨٥)، رغم أن هذا المثال إنما يدل

على عكس ما يريد الكاتب، إذ لا أظن لغةً أخرى تستطيع أن توفر مثل هذه الإمكانيّة العجيبة لأحد من أبنائها بأي حال! كذلك فإنني، وإن كنت في ذوقى الكتّاب كآبناء عصرى من الكتاب والأدباء ممن لا يتبعون في أساليبهم سبيل المحسنين المزخرفين، لا أستطيع أن أنكر أن هذه التزيينات إنما تدل رغم ذلك على مدى ما تتمتع به هذه اللغة العجيبة من إمكانات صوتية ومعنوية، وعلى ما كان هؤلاء الأدباء يملكونه من موهبة أسلوبية وعقلية تتيح لهم هذه السيطرة الرائعة على لغة أمتهم. صحيح أن بعضهم كانت تستغرقه الزعة الشكلية إلى حد مبالغ فيه بحيث لا يقدم لنا ما يكتبه شيئاً فكرياً ذا قيمة كبيرة، بيد أن كثيراً جداً أيضاً من النصوص التى تزخرفها البديعيات كانت تحتوى فى ذات الوقت على مضمون عقلى وأدبى رائع، ومنها "رسالة الغفران" لأبى العلاء المعرى، ومقامات الهمدانى والحريرى التى يرى فيها نقادنا المحدثون حتى من اليساريين أنفسهم الأساس الأول للقصة العربية القصيرة، وكذلك "ألف ليلة وليلة" التى مهّرت المستشرقين وكتبوا عنها البحوث المطوّلة ورأوا فيها إبداعاً أدبياً قل أن يوجد له ضريب! ومع ذلك كله فإن العرب لم يكونوا كلهم من عشاق التلاعب بالكلمات، وإلا فهل كان عبد الحميد الكاتب أو ابن



المقفع أو سهل بن هارون أو الجاحظ أو ابن سلام أو ابن قتيبة أو أبو  
الفرج الأصفهاني أو ابن المعتز أو أبو حيان التوحيدى أو ابن جني أو القالي  
أو القاضي الجرجاني أو عبد القاهر أو أسامة بن منقذ أو ابن حزم أو  
الغزالي أو الفارابي أو ابن سينا أو ابن رشد أو مسكويه أو الطبري أو  
القرطبي أو الزمخشري أو القشيري أو السيوطي أو ابن خلدون أو جابر بن  
حيان أو ابن الهيثم أو أبو بكر الرازي وغيرهم، وهم بالألوف، يتلاعبون  
بالكلمات؟ لقد كان هذا الاتجاه يا أ. شوباشي محصورا في بعض العصور  
فحسب، وحتى في هذه العصور لم يكن كل الكتاب يجرون عليه في  
مؤلفاتهم، ولا كان الذين يجرون عليه يتبعونه في كل ما يؤلفون. ولست  
أظن أن مثل هذه الحقائق الدامغة كانت غائبة عمن أحسب، صواباً أو  
خطأ، أنهم أمذك بالنصوص القديمة وعناوين الكتب التي أخذت منها  
وأسماء مؤلفيها ممن لا أظنك على معرفة بهم إلى الحد الذي يعكسه كتابك،  
نظراً لثقافتك الفرنسية التي أقدرها رغم هذا وعلى أية حال فقد كان  
ينبغي أن ينبهك إلى ذلك الأمر الأستاذ الذي ذكر لي قبيل دخولنا إلى  
الاستوديو لمناقشة كتابك أن دوره انحصر في قراءة مخطوط الكتاب وإجازة  
نشره، وذلك عندما سأله عما إذا كان هو الذي أمذك بالمعلومات الخاصة

بالأدب العربي التي لا يعرفها عادة إلا أهل الاختصاص مما استبعدت معه أن تكون قد توصلت إليها وحدك في مظانها التي تستعصى إلا على خبير في الموضوع.

ومن النقاط التي يثيرها الأستاذ الشوباشي دون أي داع مسألة قدسية اللغة العربية، التي قال، وأنا معه في هذا الذي قال، إنه لا يوجد في القرآن أو الأحاديث النبوية ما يدل على صحتها رغم ما ذكر من أن بعض المتحجرين، حسب وصفه، يرون أنها مقدسة فعلا (ص ٧١ وما بعدها). وهو يرمى من وراء هذا إلى أنه لا مانع من الأخذ بما يدعو إليه في كتابه من تغيير اللغة على النحو الذي يقترحه، ونرى نحن أنه سيكون له عواقب وخيمة إذا تحقق ما يريد. ثم إنه لا يكتفى بهذا، بل يتساءل عما إذا كان هناك نص في كتاب الله أو سنة رسوله يؤكد أفضلية العرب على سائر الأمم. وهو يرمى هنا أيضا إلى نفس الغاية فيما أظن. وأنا معه هنا أيضا في أن ليس في القرآن المجيد أو الحديث النبوي الشريف ما يدل على أن العرب هم أفضل الأمم. بل إن في كلام النبوة أنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح. وأزيد من الشعر بيتا حسبما يقول إخواننا السعوديون فأقول له ما أكرره دائما من أن العرب في هذا العصر

هم عنوان الهوان والمذلة والبلادة والضياع. لكن هذا كله لا يوصل، فيما أرى، إلى شيء مما يريد بلوغه من تغيير اللغة على النحو الذى يرمى إليه. فلغتنا، وإن لم تكن مقدسة، تستحق منا أن نقيم بغرامها ونفاخر أصحاب اللغات الأخرى بها ونؤمن أنها لغة مباركة لأنها هى الوعاء الذى اصطفاه الله تعالى لحفظ كتابه الكريم إلى يوم الدين! والواقع أنه إذا لم يكن هذا الاصطفاء كافياً لهيأنا بتلك اللغة وحرصنا على الاعتزاز بها فلا أدري كيف يمكن أن يكون هناك سبب للاعتزاز بأى شيء فى الحياة! وعلى أية حال لقد ذكر سيادته أن من الأمم الأخرى من ينظر نظرة تقديس إلى لغته، وعلى هذا فحتى لو قدسنا لغتنا فلن نكون بدعا فى ذلك. لكن العرب الآن لا يقدسون كلهم لغتهم أياً كان معنى التقديس، وإلا لكانوا أتقنوها كما ينبغى أن يكون إتقان اللغة القومية، ولم يكن معظم طلابهم ومثقفهم بهذا المستوى المتدنى فيها وفى غيرها. إن الذين يعتزون بلغة القرآن، أو إن شئت فقل: إن الذين يقدسونها، إنما هم الذين اطلعوا على أسرارها ويستطيعون من ثم أن يحسوا بما فيها من عبقرية، أما العامة، وكذلك أشباه العامة ممن لا يمكنهم تذوق جمالها حتى لو كانوا حاصلين على أعلى الشهادات الجامعية، فليسوا من تقديسها فى شيء. هذا، وقد

تناقض المؤلف في تحديد الزمن الذي يزعم أن نزعة تقديس اللغة العربية قد بدأت فيه: فمرة يقول إنه العصر الأموي بما كان سائدا فيه من اتجاه عروبي يجعل الأولوية في الدولة للعرب مؤثرا إياهم على بقية الأجناس المسلمة (ص ٨٧ — ٨٨)، ومرة يقول إنه العصر العباسي، وبخاصة منذ عهد المعتصم حين أطلت الشعوية برأسها وأخذ المسلمون من غير العرب يزايدون، كما يقول، على اللغة العربية ويبالغون في تبجيلها رغبة منهم في إثبات حسن إسلامهم (ص ٩٥ — ٩٦).

وهنا نجد الكاتب يُدخلنا في قضية جانبية لا علاقة لها، فيما نرى، بموضوع الكتاب الذي هو المناذاة بإصلاح اللغة العربية، إذ يقفز فجأة فيخصص فصلا يتحدث فيه عن الدور الذي قام به النصاري العرب قديما منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحديث في مجالات الأدب والعلم (ص ٩٦ وما بعدها)، وهو ما لا نريد المشاحة فيه، اللهم إلا حين يتكبد سبيل الحقيقة زاعما أن نصارى العهد العباسي، عندما رأوا أنفسهم وقد أبعِدوا عن مجالات الإبداع الأدبي بسبب من تقديس المسلمين للغتهم وكرهيتهم لمشاركتهم إياهم في ميادينها، قد انكبوا على العلوم الطبيعية تاركين للمسلمين التفوق في الأدب وإبداعاته. وهذا نص كلامه: "وعندما

اكتملت سيطرة العناصر غير العربية على الدولة في العصر العباسي كادت دراسة اللغة تقتصر على المسلمين وحدهم نظرا لأنها تتم في المساجد والمدارس الدينية، وارتبطت بحفظ القرآن. ولجأ المسيحيون إلى العلوم فبرعوا فيها وظهرت أجيال من الأطباء والفلاسفة وعلماء الرياضيات استعان بهم الخلفاء والأمراء، أما المسلمون فكادوا يغيبون عن ساحة العلم ودراسته في مناخ من التردى الحضارى" (ص ٩٧). فالمعروف أن النصارى في تلك العهود قد استأثروا بترجمة العلوم، أما الاشتغال بالعلم ذاته فكان نصيب المسلمين فيه هو الأعظم، والأسماء المشهورة في هذا المجال هي أسماء جابر بن حيان والحسن بن الهيثم وابن سينا والرازي وعلى بن عيسى والزهراوى وابن البيطار ورشيد الدين الصورى وابن رشد وابن أبى أصيبعة وأبى جعفر الغافقى والبيرونى وأبى معشر البلخى والفرقانى والبوزجاني والخوارزمى وعبد اللطيف البغدادى وابن النفيس وعلى بن رضوان وابن الجزار وعمار بن على... إلخ؟ وهو نفسه يعود فيذكر أسماء بعض العلماء العرب المسلمين هادما بذلك ما قاله قبلا عن انفراد النصارى تقريبا بالعلوم في مقابل انفراد المسلمين بالأدب واللغة (ص ١٠٠).

ومما لا نوافق سيادته عليه أيضا اتخاذُه من استحالة إلمام أى شخص

بجميع مفردات العربية وأشعارها تكأةً للهجوم على الفصحى وقواعدها والدعوة إلى هجرانها والاستعاضة عنها بلغة لا إعراب فيها ولا مترادفات ولا تشبيه ولا تأنيث مما أفضنا في مناقشته من قبل (ص ١١٥)، إذ إن هذا العجز غير خاص بلغتنا وشعرها، بل يصدق على جميع اللغات. وهذه هي طبيعة الحياة كلها لا الأدب والشعر فحسب، فلكل منا من أى شىء فى الدنيا نصيب محدود لا يعدوه رغم ترمى أطراف الأرض وكثرة الخيرات الإلهية. ترى هل يمكن أن يملك أى إنسان جميع السيارات مثلاً أو جميع البيوت أو جميع الحقول أو جميع الكتب أو جميع المصانع أو جميع الأحذية التى فى الدنيا؟ فلماذا يحاول الكاتب أن يوهنا بأن فى عجز العربى، مهما كان نصيبه من الثقافة اللغوية، عن استيعاب مفردات لغته كلها فى عقله ما يدعو إلى الاستغراب وما يستلزم فوق ذلك أن تهجر هذه اللغة إلى لغة أخرى ليس فيها كل هذه المفردات التى تتضمنها الفصحى والتى تصل، كما يقول، إلى مليونى كلمة؟

وهنا نراه ينحى على العربية خلوها من المعاجم العملية السهلة الموجودة فى اللغات الأخرى (ص ١١٥). ولست فى الحقيقة أعرف ماذا يقصد مؤلفنا بخلو لغتنا من هذا اللون من المعاجم، فالمعروف أن هناك

معاجم عربية كثيرة، لكن المشكلة تكمن في أن العرب لا يهتمون بالثقافة والقراءة عموماً، وبخاصة في ميدان اللغة، اللهم إلا المتخصصين، أما سائر أفراد الشعب فهم في عمومهم في واد، والاهتمامات الثقافية في واد. وحتى إذا كان يقصد بالمعاجم السهلة العملية تلك التي تُرتَّب فيها الكلمات بناء على رسمها لا على جذرها اللغوي كما هو متبع في المعاجم العربية الأصلية، فهذا الضرب من المعاجم موجود عندنا أيضاً. ولديّ في مكتبي الخاصة عدد منها رغم أني أفضّل الطريقة المعجمية التقليدية للملاءمتها لطبيعة لغتنا، لكنني اشتريتها من باب اقتناء كل ما أستطيع اقتناؤه من الجديد في ميدان اللغة والأدب، ولتكون أيضاً في متناول أولادي الصغار إذا ما أرادوا أن يبحثوا عن معنى كلمة دون أن يرهقوا أنفسهم في البحث عن أصل مادتها. ومن هذه المعاجم "منجد الطلاب" و"الرائد" و"لاروس" وغيرها. وتتجاوز المعاجم ودوائر المعارف التي في مكتبي في كل ما يخطر على البال تقريباً من العلوم والفنون مائتين رغم أنها ليست من المكتبات الغنية التي أراها أو أسمع بها عند بعض العلماء. إلا أنني حريص أشد الحرص على امتلاك أكبر عدد ممكن من هذا الضرب من الكتب لأنها تسهل الوصول إلى المعلومات التي أبحثها في أسرع وقت وبأوجز عبارة.

لكن كم من خريجي أقسام اللغة العربية، ودعنا من خريجي الأقسام الأخرى، يهتم بأن يكون في بيته معجم، أو أن يفتح أى كتاب أصلاً؟ هذه هى المشكلة لا اللغة العربية وصعوبتها المزعومة! وأنتهز الآن الفرصة لأعيد القول هنا بصوت عالٍ وعملء فمى إن مثل هذه المزاعم والشكاوى سوف تختفى وتصبح فى خير "كان" يوم يُقبل العرب على القراءة ويهتمون بترقية عقولهم وأذواقهم كما يهتمون بيطوئهم وتسلياتهم التافهة، وكما كان أجدادهم يهتمون بالعلم والأدب وشؤون الفكر والثقافة أيام مجدهم الحضارى!

ومن آراء المؤلف الغريبة أيضاً التى لا أدرى من أين عنت له قوله إن عندنا نحن العرب منذ قرون طوال شيزوفرا尼亚 لغوية، إذ عندما نترك أنفسنا على سجيئها فإننا نستعمل اللهجة العامية، أما عندما نكتب أو نقرأ أو نستمع إلى نشرات الأخبار فإننا نتحول إلى اللغة الفصحى (ص ١٢٥). وهو رأى فطير لا ينهض على أى أساس، فنحن لا تتغير شخصيتنا عندما نتقل من مستوى لغوى إلى مستوى لغوى آخر حسب السياق الذى نجد أنفسنا فيه، وإلا لكان البشر جميعاً مصابين بالوان والوان من الشيزوفرا尼亚 لأنهم دائماً التنقل من حالة لأخرى فى كل وقت من النهار والليل: ففى



البيت نرتدى المنامة والشبشب، أما عندما نخرج إلى الشارع فنلبس القميص والسراويل، وفي الحفلات والمناسبات الرسمية نأخذ كامل زينتنا ونلبس البدلة ورباط الرقبة والحذاء والجورب، ونتعطر ونضع منديلا بارزا في جيب البدلة العلوى للزينة... إلخ. ونحن حين نكون في الشارع في عجلة من أمرنا فإننا نسكت صراخ بطوننا بشطيرة كيفما اتفق، على حين أننا لو كنا بالبيت فلن نرضى من زوجاتنا بأقل من الطيخ واللحم والسلطات والجبن والفواكه... وهلم جرا. كذلك فالواحد منا يكون خارج البيت بحاملا مع الآخرين، بينما يترك نفسه على طبيعته مع أهل بيته فيصرخ وينفعل، وقد يكون وغرا شديد الوعورة... وهكذا، وهكذا. ترى أين خطر في بال أحدنا أن يسمّى شيئا من هذا شيروفرانيا؟ وعلى كل حال فهذا الانتقال من مستوى لغوى إلى مستوى لغوى آخر موجود في كل اللغات، وليس مقصورا على لغة القرآن، إذ الحياة في كل مجالاتها ومظاهرها مرتبة درجات بعضها فوق بعض. والفصحى، كما سلف القول، تشبه ارتداء الملابس الرسمية كاملة، أما عامية المثقفين فتشبه القميص والسراويل، وأما عامية غير المتعلمين فتشبه مبادئ العمل، وتبقى عامية الدهماء والغوغاء، وهى أشبه ما تكون بملابس الكناسين وكاسحى المجارى. ولست أقصد

بهذا تحقيرا لأى أحد أو لأية مهنة. إنما هو مثل ضربته لأيين للقراء الأفاضل أن المؤلف لا يقول كلاما سليما حين يتهم العرب من دون سائر خلق الله بأنهم مصابون بداء "الشيزوفرنيا"!

ولا بد من التشديد هنا على أن الفرق بين اللغة الفصحى واللهجة العامية ليس كالفرق بين لغتين مختلفتين كما يزعم مؤلفنا خطأ، وإلا فكيف يفهم العامى المغرق فى الأمية والجهل كلام الخطيب يوم الجمعة والآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال الصحابة وآيات الشعر التى تتضمنها الخطبة عادة؟ وقل مثل ذلك فى نشرات الأخبار والتحليلات السياسية والكلمات التى تلقى فى الندوات العامة. كذلك كيف يفسر الكاتب مقدرة ابنتى الصغيرة التى لا تزال فى المرحلة الابتدائية على فهم القصص والمجلات والكتب التى أشتريها لها لتقرأها وتستمتع بها، حتى إنها لتفاجئنى بترديد بعض عباراتها الفصحى كما فعلت الليلة مثلا حين كنت أهددها وهى بجوارى تقرأ فى إحدى مجلات "ميكى"، إذ انطلق لسانها قائلة: "لماذا تُرَبِّتُ على كَتَفِى يا أبى؟". هكذا بالنص كما شكَّلتُ الجملة، مما جعلنى أهتف بصوت مسموع وأنا أقهقه: "تعال يا أستاذ شوباشى، اسمع!"، وهو ما دفعها إلى السؤال باستغراب: "من الأستاذ الشوباشى هذا

يا بابا؟" (قالتها هذه المرة بالعامية)، فضحكت زوجتي، التي تعرف الأمر وتتابعه معي أولاً بأول... والطريف أن هذه الصغيرة نفسها كثيراً ما تسألني عن بعض الكلمات والعبارات العامية التي لا تدرك معناها فيما أحب الاستماع إليه من أغانٍ مثل أغنية "غُلِّبْتُ أصالح في روعي" لكوكب الشرق، التي لم تفهم منها عبارة "صعبان علىّ اللي قاسيته، في الحب من طول الهجران؟" ثم كيف يفسر سيادته استطاعتي أثناء طفولتي الأولى في الكُتّاب فهم قصص الأنبياء التي كانت تقع في يدي بين الحين والحين في خمسينات القرن الماضي حين كانت القرية المصرية غارقة في ظلمات الأمية إلى حد كبير، وكل ما كان في جَعْبَتنا من الفكر والثقافة في ذلك الحين قواعدُ الإملاء وعملياتُ الحساب الأولية وحفظُ بعض السُور القرآنية؟ وماذا يقول في القراء الذين لم يحصلوا على أية شهادة علمية، لكنهم يحبون القراءة ويستطيعون أن يفهموا ويتلذذوا بمطالعة الكتب الراقية التي ألفها فطاحل الكتاب والأدباء كالعقاد والمازني وطه حسين وأحمد أمين وفريد أبو حديد مثلاً؟ وكيف يا ترى يفهم هذا النوعُ من القراء آياتِ القرآن وأحاديثَ النبي، وكتب التفسير والفقه وغيرها من المؤلفات التراثية؟ إن الكاتب يبدو وكأنه يتحدث عن مخلوقات تعيش في الفضاء

الخارجي لا نعرف عنهم شيئا إلا ما تحكيه الأساطير والقصص الخرافية، فهو يأخذ راحته تماما في الحديث عنهم وعن غرائب أحوالهم مطمئنا إلى أن أحدا لن يستطيع أن يعقب على ما يقول!

ثم بالله عليكم أيها القراء، هل يُعقل أنه إذا ذهب واحد مثلى إلى البقال وأصابه خَبَلٌ في عقله (بعد الشراء) وقال له: "أعطني يا بُنَيَّ رغيفا من الخبز، وزدْ عليه قطعة من الجبن"، أن البقال لن يفهم من هذا الكلام شيئا كما يزعم أ. الشوباشي؟ طيب ما رأيك يا أ. شوباشي أنى أنا نفسى قد فهمت هذه الجملة من أول وهلة؟ تَصَوَّرْ! أَلست أستحق منك جائزة؟ لا تضحكوا من فضلكم أيها القراء الكرام من منطقى هذا في الرد، فإن مثل تلك الدعوى لا يُردّ عليها إلا بذلك المنطق! والواقع أن هذا الكلام هو من عينة الزعم المضحك بأن المجمع اللغوى يقول في تسمية الساندويتش: "شاطر ومشطور وبينهما طازج!" ومن الغرائب في هذا السياق قول المؤلف إن العربى في كل العصور والأزمنة كان يهجر الفصحى ويلجأ إلى العامية يعبر بها عما في صدره حتى إنه لو ذهب لحبيته وقال لها: "أنا هائم في غرامك" أو "وجهك الصبح يهز كيانى" لانتهدت العلاقة بينهما بهذا الغزل البليغ (ص ١٣٥). وطبعا لو أنه، بدلا من هذا، غازلها بالفرنسية

التي لا تعرف منها حرفا فلسوف ترمى على صدره من فورها وتُكَلِّش فيه واقعةً لشوشتها في هواه، ولن يستطيع أحد عندئذ أن يفكّه منها ولو بالطبل البلدى! لكن ماذا تقول يا أستاذ في كل الغزل العربي طوال الخمسة عشر قرنا الماضية وزيادة، وقد كان كله بالفصحى، اللهم إلا الأغاني العاطفية في العقود الأخيرة، بل كانت بعض الشعراء يعثون رسائلهم إلى حبايبهم بهذه اللغة كما فعل بشار والعباس بن الأحنف وابن زيدون والبهاء زهير، لا بالعامية كما تظن أنت؟ ملعوبة هذه؟ أليس كذلك؟ وما رأيك في أن الحيين والمحبات، حتى في عصرنا هذا، حين يكتب بعضهم لبعض رسائل غرامية إنما يكتبونها عادة بالفصحى، ويكون إذا استمعوا إلى الأغاني الفصيحة من مثل: "أيظن؟" أو "لا تكذبي"، أو "رسالة من امرأة مجهولة" أو "لستَ قلى" أو "حبيبها" أو "قصة الأُمس" أو "أراك عَصِيَّ الدمع" أو "فَجَر" أو "جبل التَّوْبَاد" أو "عُدَّتْ يا يوم مولدى" أو "أشواق" أو "لا تُودِّعْنى حبيبى"؟ بل إنهم حينما يكون إنما يكون بالفصحى! ما رأيك في هذه أيضا؟ ملعوبة؟ ألا توافقني على هذا؟ حتى أحمد رمزى في الفلم المشهور الذى كان يقوم بدور السَّيِّد فيه كالعادة الأستاذ غراب (عبد السلام النابلسى)، كان يستعين بسعد عبد الوهاب في

كتابة الخطابات الملتزمة للممثلة إيمان باللغة الفصيحة مما لا تُعَدُّ الجملتان اللتان استشهدتَ بهما سيادتكَ بجانبه شيئاً بالمرّة! أتستطيع أن تنكر هذه الواقعة أيضاً؟ إنك إن فعلت فسوف أرفع دعوى قضائية وأطلب شهادة الممثلين المذكورين، ولا أظنهما يجحدان الشهادة، وإلا فهناك نسخة القلم، وهى لا يمكن أن تغير ذمتها! وقسْ على ذلك القلم غيره من الأفلام!

وبعد، فقد آن لنا أن نلقى القلم ونستريح، ولكن قبل أن نفعل لا بد أن نبين للقراء ماذا نقصد بكلمة "عبقرية" حين نصف بها لغتنا الفصحى: أول شيء أنها لغة طويلة العمر، إذ يبلغ عمرها أكثر من ستة عشر قرناً بكثير، وهذه الخصيصة دليل على أصالتها وعلى أن فيها سرّاً وبركة، وإلا ما استطاعت أن تقوم بمحاجات أجدادنا وآبائنا ثم حاجاتنا نحن أيضاً على مدار هذا التاريخ الطويل الذى لم يهبه الله للغة غيرها. لكن أ. الشوباشى لا يستطيع أن يدرك هذا المعنى، ونحن ندعو الله له بالاهتداء إلى إدراكه حتى لا يتجنّب على هذه اللغة العبقرية. وثانى شيء أنها تخلو من التناثر فى حروف كلماتها بحيث لا تجد فيها مثلاً كلمة تحتوى على "دال" يوجد قبلها أو بعدها "طاء" أو "ظاء"، أو كلمة تحتوى على "جيم" يجرى قبلها أو بعدها "غين"، أو كلمة تحتوى على "سين" يأتى قبلها أو بعدها "شين"،

إلا في الشاذ السادر إن وُجد... إلخ. وعلى هذا فانت حين تقرؤها أو تتكلمها لن تجد فيها ما يشغل على لسانك أو أذنك أو ذوقك. بل إنما لا تقبل أن تكون فيها كلمة تبدأ بحرف ساكن. وهذا وذاك مما لا يتوفر لغيرها مما نعرفه على الأقل من اللغات الأوربية التي يفاخرنا بها كل من في قلبه شيء تجاه العربية الفصيحة! وثالثا فهذه اللغة كل كلماتها موزونة، والأوزان التي تجرى عليها تلك الكلمات معروفة ومعدودة ويمكن أن يُلم بها أي شخص في عجلة: فالأفعال الماضية مثلا إذا كانت مكونة من ثلاثة أحرف لا تخرج عن أن تكون على وزن "فَعَلَ" أو "فَعِلَ" أو "فَعُلَ". والمضارع من الوزن الأول يكون إما على وزن "يَفْعَلُ" أو "يَفْعِلُ" أو "يَفْعُلُ". أما من الوزن الثاني فهو إما على وزن "يَفْعِلُ" أو "يَفْعَلُ"، ولا ثالث لهما. ويبقى الوزن الثالث، والمضارع منه ليس له إلا صورة واحدة هي "يَفْعُلُ"... وهذا مجرد مثال. ولهذا كانت اللغة الفصحى لغة موقّعة تمتع الأذن، وهذه قيمة يهتم بها ذواقو اللغات. كذلك فكل وزن من أوزان الكلمة له معنى أو أكثر، ومن ثم كان من السهل في كثير من الأحيان معرفة المعنى الإضافي للكلمة بسهولة: فمثلا المصادر الثلاثية التي على وزن "فَعَال" تدل عادة على مرض أو ألم مثل: "دُوَار، زكام، صداع،

كِبَاد، كَسَاح، قَرَاع، خُتَاق"... إلخ. كما أن اسم الآلة لا يخرج في صيغته القياسية عن الأوزان التالية: "مِفْعَل، مِفْعَال، مِفْعَلَة، فَعَال، فَعَالَة، فَاعُول"... وهلم جرا. ثم إن الإعراب الذي يزجج بعض الناس هو أيضا سر من أسرار هذه اللغة العجيبة التي اثبتت من قلب الصحراء، لكن ما إن نزل بها كتاب الله حتى انطلقت من عزلتها إلى آفاق العالمية وصارت لغةً إمبراطوريةً مترامية الأطراف. وهذا الإعراب يعطيها مرونة وحرية وحيوية ليست للغة غيرها. إن كاتبنا يبدى ضيقة بهذه السمة مفضلا عليها أن تجيء الجملة على وتيرة واحدة لا تتغير، كالذي لا يعرف من ألوان الأطعمة إلا "السميط والجبن"، فيظل طول النهار يأكل "سميطًا وجبنًا، سميطةً وجبنًا، سميطةً وجبنًا" حتى مشَّشتْ بطنه من الجبن وتكلَّس السميطة فيها، مع أن خيرات الله في ميدان الأكل لا حَصْر لها ولا حدٌّ لتنوعها. لكن ماذا تقول فيه وفي أمثاله ممن لا يريدون أن يعرفوا أن نعم الله كثيرة وأن في الدنيا أشياء غير "السميط والجبن"؟ وفضلا عن هذا فإن الفصحى تمتاز بالشراء الفاخر في معجمها اللفظي، فما من شيء أو صفة أو معنى مهما كان من دقته إلا وَضَعَ له العرب عدة كلمات تنظر إليه من كل زواياه مثلما رأينا فيما قاله حسن الشريف في مثال "العطش"، وكذلك ما



قاله محمد مفيد الشوباشي في "مشى المرأة"، وما قلته أنا في بعض أسماء "السيف". وهناك مزايا أخرى كثيرة ليس هنا موضع تبيانها، فتطلب في مظائنها.

ونصل الآن إلى خط النهاية، ولكن قبل أن نظوى أوراقنا لا بد من كلمة حق نقولها في سيبويه، الذي نادى مؤلفنا بسقوطه. لقد أسدى هذا الرجل إلى لغة القرآن يدًا جُلِيَّ بتأليف أشهر كتاب في النحو العربي حتى ليكفي أن يقال: "الكتاب" ليعرف السامع للتو أن المقصود كتاب هذا العالم الجليل. ويزيد الرجل فضلًا أنه فارسي، على حين أن من العرب الآن من يدعون إلى خنق اللغة العربية زاعمين عليها المزاعم ومهولين في أمر صعوبتها، وكأنها هي الشيء الصعب الوحيد في العالم، مع أن الحياة كلها صعوبات. إن الأمم القوية هي التي تفرض كلمتها وشخصيتها على الدنيا لا التي تفرّ منهزمة أمام أول عقبة تصادفها في طريقها. لقد مضت عدة قرون على العرب والمسلمين وهم موتى أو أشباه موتى، بينما تقتحم أمم أخرى بلادهم اقتحامًا وتُملى كلمتها عليهم وتريد أن تُكْرِههم على أن يعيشوا بالأسلوب الذي تريده هي لا الذي يريدونه هم، ومنه التخلي عن لغة القرآن. وهو الحلم الذي يراودهم منذ أجيال، ولا يريدون أن

يَكْفُوا عن محاولة جعله حقيقة! فكيف نقبل أن يهان سيبويه، وهو رمز من رموزنا العلمية والدينية، وكذلك القومية رغم أن الرجل فارسي الأصل؟ إن العرب هم الذين يتشرفون بسيبويه، وليس هو الذى يتشرف بهم، وإن كان شرفه نابعا من خدمته للغة التى اختارها السماء لحمل رسالة الدين الأخير، الدين الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم والذى تعهد الله بحفظ كتابه. وعلى هذا فإننا نهتف من أعماق قلوبنا وبأعلى حسنا: يعيش سيبويه! ولا عاش من يكره الفصحى ويعمل على تدميرها رغم أنه، بمشيئة الله تعالى وحوله وطوله، لن يكون أبدا من المفلحين! وأرجو ألا يكون الأستاذ شريف الشوباشى من هؤلاء الكارهين، إن لم يكن من أجل شىء فلائنه وكيل وزارة الثقافة فى أكبر دولة عربية، ووكيل الثقافة فى مصر ينبغى أن يكون من المتدلين فى هوى لغة القرآن!

## نبذة عن المؤلف

د. إبراهيم عوض (آداب عين شمس)

دكتوراه من جامعة أوكسفورد ١٩٨٢م

له عدد من المؤلفات للنقدية والإسلامية منها:

- معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين
- المتنبي - دراسة جديدة لحياته وشخصيته
- لغة المتنبي - دراسة تحليلية
- المتنبي بزاء القرن الإسماعيلي في تاريخ الإسلام (مترجم عن الفرنسية مع تعليقات ودراسة)
- للمستشرقون والقرآن
- ماذا بعد إعلان سلمان رشدي توبته؟ دراسة فنية وموضوعية للأيات الشيطانية
- لترجمة من الإنجليزية - منهج جديد
- عنتره بن شداد - قضايا إنسانية وفنية
- للناطقة للجمدى وشعره
- من ذخائر المكتبة العربية
- السجع في القرآن (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)
- جمال الدين الأفغاني - مراسلات ووثائق لم تنشر من قبل (مترجم عن الفرنسية)
- فصول من النقد القصصى
- سورة طه - دراسة لغوية أسلوبية مقارنة
- أصول الشعر العربي (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)
- لفتراءات للكاتبة البنجلاديشية تسليمة نسرین على الإسلام والمسلمين - دراسة نقدية لرواية "العار"
- مصدر للقرآن - دراسة لشبهات للمستشرقين والمبشرين حول الوحي للمحمدي
- نقد للقصص في مصر من بداياته حتى ١٩٨٠م
- د. محمد حسين هيكل أدبيا وناقدا ومفكرا إسلاميا
- سورة النورين التي يزعم فريق من الشيعة أنها من القرآن الكريم - دراسة تحليلية أسلوبية
- ثورة الإسلام - استاذ جامعي يزعم أن محمدا لم يكن إلا تاجرا (ترجمة وتفنيد)
- مع الجاحظ في رسالة "لرد على النصارى"
- محمد لطفي جمعة - قراءة في فكره الإسلامي

- يطال القليلة النووية الملقاة على السيرة النبوية - خطاب مفتوح إلى الدكتور محمود على مراد في الدفاع عن سيرة ابن اسحاق
- سورة يوسف - دراسة أسلوبية فنية مقارنة
- سورة المائدة - دراسة أسلوبية فنية مقارنة
- المراسل المشوّهة - دراسة حول الشعر العربي في ضوء الاتجاهات النقدية الجديدة
- القصص محمود طاهر لاشين - حياته وفنه
- في الشعر الجاهلي - تحليل وتنويع
- في الشعر الإسلامي والأموي - تحليل وتنويع
- في الشعر العربي الحديث - تحليل وتنويع
- موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم
- أدباء سعوديون
- دراسات في المسرح
- دراسات دينية مترجمة عن الإنجليزية
- د. محمد مندور بين أوهام الادعاء العريضة وحقائق الواقع الصلبة
- دائرة المعارف الإسلامية المستشرقية - لضافيل ولباطيل
- شعراء عباسيون
- من الطبري إلى سيد قطب - دراسات في مناهج التفسير ومذاهبه
- القرآن والحديث - مقارنة أسلوبية
- اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة
- محمد لطفي جمعة وجيمس جويس
- "وليمة لأعشاب البحر" بين قيم الإسلام وحرية الإبداع - قراءة نقدية
- لكن محمدا لا يواكي له - الرسول يهان في مصر ونحن نائمون
- مناهج النقد العربي الحديث
- دفاع عن النحو والفصحى - الدعوة إلى العامة تطل برأسها من جديد
- عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين
- لتحيا اللغة العربية: يعيش سيويوه (رد على هجوم وكيل وزارة الثقافة في مصر على لغة القرآن وقواعدها)
- التنويع الأدبي
- الفرقان الحق: فضيحة العصر - قرن امريكي ملوث

**المنار للطباعة**

**القاهرة ت : ٢٩٦٤٨٤٤ ٠٢**

**الغلاف تصميم : م/ عصام عبد المعطي**

**الغلاف الأخير : بريشة سلوى الصغيرة**